سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ

اَلْعِصْمَةُ النَّبَوِيَّةُ

٦

اَلْمُؤَلِّفُ: مُحَمَّد فَتْح الله كُولَن

المترجم: أورخان محمد علي

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ٦

ترجمة كتاب (Sonsuz Nur) عن التركية

محفوظة جميع الحقوق

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الثالثة: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 975-315-178-0

الهاتف: (٩٠٢١٦٣١٨٦٠١١+) فاكس: (٩٠٢١٦٣١٨٤٢٠٢+) استانبول / تركيا

مركز التوزيع/فرع القاهرة: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – م. نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

موقع الأستاذ م فتح الله كولن على الإنترنت:

www.ar.fgulen.com

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ٦

اَلْعِصْمَةُ النَّبَوِيَّةُ

اَلْمُؤَلِّفُ : مُحَمَّدْ فَتْحُ اللّٰهِ گُولَنْ

اَلْمُتَرْجِمُ : اُورَخَانْ مُحَمَّدْ عَلِي

بسم الله الرحمن الرحیم

القسم الخامس

عصمة الأنبياء (عليهم السلام)
وعصمة نبينا ﷺ

الفصل الأول:

العصمة بمعناها العام

أ- معنى العصمة لغوياً ومصطلحاً

من صفات الأنبياء أنهم معصومون وأطهار من الذنوب. ونحن نطلق على هذا صفة العصمة.

والعصمة لغة: المنع، والحفظ، واصطلاحاً: حفظ الله تعالى أنبياءه من الذنوب كبيرها وصغيرها، أي أن الله تعالى لا يعطي للنبي الذي يرسله فرصة اقتراف الذنب إذ يحفظه من ذلك.

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في مواضع عديدة، فمثلاً قول نوح عليه السلام لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا﴾ (هود: ٤٢) فأجابه ابنه: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (هود: ٤٣) فكلمة "يعصمني" الواردة في هذه الآية تأتي من فعل "عصم" ومعناه "حفظ"، وأجاب نوح عليه السلام ابنه بجواب جاءت فيه كلمة من نفس الاشتقاق إذ قال: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَومَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ (هود: ٤٣). وسواء أجاءت كلمة عاصم بنفس معناها أم بمعنى معصوم فالأمر لايختلف كثيراً، إذ هناك عاصم، وهناك معصوم، والمعنى يدور حول العصمة.

وعندما شرحت "زليخا" عفة يوسف عليه السلام قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢)، ومعنى كلمة استعصم هنا امتنع، صان نفسه، لم يقرب.

وكلمة "اعتصموا" الواردة في الآية ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾ (آل عمران: ١٠٣) تأتي بمعنى استمسكوا بحبل الله المتين لكي تحفظوا أنفسكم من الوقوع في الانحراف، أي بمعنى الاستمساك بشيء قوي ومنيع. ومعنى المنع والحفظ يرد لكلمة "يعصمك" الواردة في الآية ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧).

ب- **كل نبي معصوم**

كل الأنبياء معصومون، فلن تجد في حياة أي منهم أي انحراف مقصود، فهم أناس مختارون ومخلوقون بشكل استثنائي.. هم ليسوا أخياراً فحسب، فهم مصطفون من بين أفضل الأخيار، وهؤلاء لا يقترفون طوال حياتهم أي شيء يلقي ظلاً على اصطفائهم هذا وعلى قدسية المهمة التي بعثوا من أجلها.

فطرة الأنبياء صافية وطاهرة، وأرواحهم علوية وسامية، وإرادتهم صلبة وقوية، وقلوبهم نيرة ووضيئة.. فالتجليات الإلهية تتبلور وتنعكس في قلوبهم بأبعادها الحقيقية، فقلوبهم ونفوسهم مثل مرآة صافية نقية تنعكس عليها الأنوار على حقيقتها، فلا يوجد هناك أي انحراف ولا أي تحول في أي لون.

أجل، هم هكذا.. ومن المنطقي أن يكونوا هكذا، ذلك لأن الأنبياء بعثوا بيننا من أجل القيام بمهمة التبليغ، فغاية وجودهم هي التبليغ فقط، أي أنهم أول المخاطبين بكلام الله تعالى وأوامره، وعليهم أن ينقلوا من ثم هذه الأوامر إلى الناس كما هي، ولو لم يكونوا أصحاب أرواح طاهرة ونفوس قوية لما استطاعوا نقل الرسائل الإلهية كما هي إلى الناس.. ولو كانت فطرتهم غير

شفافة وقلوبهم غير طاهرة ونفوسهم غير صافية لانحرفت أشعة الوحي الإلهي عند سقوطها على قلوبهم هذه ولتلونت بلون أحاسيسهم ومشاعرهم -أرادوا ذلك أم لم يريدوا-، وهكذا تكون البلاغات الإلهية قد فقدت هويتها وتغيرت طبيعتها.

الأنبياء يقومون في الوقت نفسه بوظيفة المرآة التي تعكس الأسرار الصادرة من الذات الأقدس إلينا، لذا وجب أن تكون هذه المرايا صافية ونقية لكي لا تكون الحقائق التي تعكسها للقلوب خادعة.

يتعلم الإنسان جميع الأحكام المتعلقة بالإيمان والعقيدة والعمل بوساطة الأنبياء، لذا يجب أن يرى الناس أفضل صورة متجلية للدين عند الأنبياء لكي يتبعوهم ويصلوا إلى سعادة الدنيا والآخرة، فلو اقترف هؤلاء الذين هم قدوة الناس وائمتهم الذنوب فكيف يجوز اتباعهم؟ لأن الاتباع نابع عن بحث الإنسان عن الاستقامة، أما اتباع من يجوز عليه الانحراف فهو ضد هذا الميل الإنساني الباحث عن الاستقامة وعن الطريق القويم.. كلا، لم يقترف أي نبي أي ذنب، بل كانوا قدوة في جميع تصرفاتهم طوال حياتهم، لأن من الصعب التصور أن إنساناً ليس من أهل الجنة يقوم بالإمساك بأيدي الناس ويقودهم ليكونوا من أصحاب الجنة، بينما أرسل الله الأنبياء والرسل لكي يهدوا الناس ويجعلوهم أهلاً لدخول الجنة.

ولكون الأنبياء معصومين فإن هناك تفوقاً ساحقاً للدين المستند إلى الوحي على جميع النظريات والمذاهب البشرية والوضعية، ولو لم يكن هذا هو الواقع لما حصلنا

على هذه النتيجة.

لا شك أن الأنبياء كانت لهم مبادؤهم وأفكارهم الخاصة بهم قبل بعثتهم، وهذا شيء طبيعي ولا يشكل قدحاً في حقهم، وقد يكون هذا هو السبب في أن الرسول ﷺ كان يبحث عن الحقيقة وعن خلاص للبشرية وهو معتكف في غار حراء قبل بعثته.. أجل، لقد كانت لديه غاية وهدف وهو إنقاذ البشرية من الظلام والشر.. غايته كانت تنتهي عند هذه الحدود.. ولكن صفة إنقاذ البشرية لم تكن عائدة له ولا لأفكاره.. كانت آتية من الله تعالى عن طريق الوحي.. إذن، هنا مفترق الطرق بين أفكارنا ومثلنا وبين الوحي. فأحدهما بشري تماماً والآخر إلهي تماماً، لذا كان على النبي أو الرسول الذي يتكفل بنقل النظام الإلهي وتحمل تبعاته أن يكون مختلفاً ومتميزاً عن غيره من أصحاب المبادئ والمثل.

وكما يتميز الأنبياء عن أصحاب المبادئ والمثل الأخرى إذ وهبوا العصمة، كذلك تتميز الأمة التي تتبع النبي عن غيرها من الجماعات الأخرى إذ تكون أقرب منها إلى الخير وإلى العصمة.

لا شك أن كل إنسان يجب أن يكون صاحب مبدأ، والإنسان الذي لا يملك مبدءاً في الحياة يعد إنساناً متسيباً، لذلك قال بديع الزمان سعيد النورسي: إن تم نسيان أو تناسي المبدأ توجهت الأذهان إلى الأنانية.

إن عصمة الأنبياء وعدم اقترافهم لأي إثم أصبح لديهم فطرة وطبيعة، قد توجد بقع على وجه القمر أو كلف على وجه الشمس، ولكن لا يوجد حتى ظل للإثم في روح النبي.

إن اقترف ولي من الأولياء ذنباً -لنفرض أنه تلفظ بشيء مخالف للحقيقة دون أن يدري- عاش حياته كلها متألماً جراء ذلك، ولكن إن جرى على لسان نبي -على فرض المستحيل- شيء من هذا لأحس بتأنيب الضمير حتى يوم القيامة.

لذلك فإن الجمل الثلاث التي حملت معنى "التعريض" وليس الكذب للنبي إبراهيم عليه السلام والتي قالها من أجل المصلحة،[1] بقيت تسبب له الألم حتى يوم الحشر إذ حوّل الذين راجعوه للشفاعة إلى النبي موسى عليه السلام.[2] أجل، إن قلبه وقلوب جميع الأنبياء مقفلة أمام الإثم بهذه الصورة وبهذه الدرجة.

عندما نوينا تناول هذا الموضوع بالتحليل كنا نريد شرح عصمة رسولنا ﷺ، ولكن لكون جميع الأنبياء "أولاد علات"[3] أي أبناء من أب واحد -أجل، فهم مثل أبناء تلقوا التربية نفسها من والدهم- لذا، كان لا بد لنا أن نستعرض عصمة جميع الأنبياء بشكل مختصر، وسنحاول بشكل خاص في ضوء نور القرآن شرح مدى بطلان وقبح التهم التي كيلت لبعض الأنبياء العظام في الكتب المحرفة، غير أن المحور الأساسي لموضوعنا الرئيسي سيكون كما قلنا سابقاً رسول الله ﷺ وعصمته.

أجل، كل نبي معصوم، أما رسول الله ﷺ فهو في قمة العصمة، ذلك لأن كينونته عُجنت بالتجليات الإلهية، وكان قلبه على الدوام مرآة لتجليات الله سبحانه وتعالى، لذا فمثله لا يكون إلا في أعلى قمة العصمة.

---

(١) سنتناول فيما بعد هذه الجمل الثلاث بالشرح.

(٢) **مسلم**، الإيمان، ٣٢٦

(٣) **البخاري**، الأنبياء، ٤٨؛ **مسلم**، الفضائل، ١٤٤؛ **أبو داود**، سنة، ١٣

والأنبياء أشخاص مختارون ومصطفون من قبل الله تعالى لأداء مهمة خاصة جداً، لذا فقد صانهم على الدوام بسبب وضعهم الخاص هذا. وهذا يعني أنه زينهم بصفة العصمة، فلكي يكونوا أئمة الهدى وقدوة للإنسانية جمعاء ومرشدين للبشرية فعليهم أن يحافظوا على منزلتهم السامية ومواقعهم الطاهرة، وأن يصونوا أنفسهم من أي نجاسة أو تلوث لكي لا ينحرف الذين يتبعونهم، ولا تعدو أعينهم إلى غيرهم، ذلك لأنهم هم الضمان الأكيد والموثوق في قيادة الإنسانية إلى الله وإلى رضا الله، بينما لا يوجد رضا الله في الذنوب وإن كانت صغيرة، فكيف يستطيع إنسان محروم من رضا الله قيادة الآخرين إلى رضاه؟ هذا لا يكون أبداً.. إذن، فالأنبياء لا يمكن أن يقترفوا إثماً.

ج- **الأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها**

الأنبياء -على مذهب الجمهور- معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها، فلم يقترفوا أي ذنب مهما كان صغيراً.. وبعض الهفوات أو الهَنَات المنسوبة إلى بعض الأنبياء لا تعد ذنوباً أولاً، وثانياً وقعت قبل نبوتهم. وفي كلتا الحالتين يبقى النبي معصوماً، وما ندعوه نحن بالهفوة أو الزلة إنما يتعلق بمقامهم، أي أن هذه الهفوات لا تعد أخطاء بالنسبة للأشخاص العاديين، ولكنها تعد هفوات بالنسبة للمقربين إلى الله تعالى.

وكيف لا يكون هؤلاء معصومين، وكيف يستطيعون اقتراف الذنوب بينما نقوم نحن بمقاييس البشرية بالتحقيق الأمني لأي موظف نقوم بتعيينه في موقع وفي وظيفة بسيطة، إذن، فتصور موضوع تعيين شخص وتكليفه بمهمة النبوة..

إذن، يجب هنا أن يمتد التحقيق إلى الجد السابع له.. أيتم كل هذا التحقيق في اختيار شخص لأمر ثانوي من أمور الدنيا ولا يتم إبداء حساسية شديدة في صدد أكبر مهمة.. مهمة تحتضن الدنيا والآخرة؟ ألا يدقق مدى قابلية ذلك الشخص ومدى لياقته لتقلد هذه المهمة الخطيرة؟

لنتأمل كيف أن الملك الذي ينقل الوحي يختار أيضاً من بين الملائكة.. ملك متميز بالأمانة لكي تُعهد إليه هذه المهمة، فالقرآن الكريم يصف جبريل عليه السلام بأنه ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ (التكوير: ٢١) أي تطيعه الملائكة في السماء والملإ الأعلى، وهو أمين في نقل الوحي كذلك، فهل يُطالَب الملك الناقل للوحي بهذه الصفات ولا يُطالب النبي الذي سيمثل هذا الوحي بالصفات نفسها؟

أجل، لا يمكن لله تعالى أن يعهد بتمثيل هذه المهمة المقدسة إلى شخص مخادع أو لص أو سكير أو معتدٍ على الأعراض، فكيف يمكن أن توجد مثل هذه الصفات القبيحة في نبي وهي صفات يشمئز منها حتى الأشخاص العاديون؟ ألا يشك الإنسان في عقول الذين يفترون مثل هذه الإفتراءات على الأنبياء؟ بل يشك في كونهم بشراً. إن الإنسان الملوث لا يمكن أن يكون ممثلاً للطهارة والنقاوة، ولا يمكن إطلاق اسم نبي على مثل هذا الإنسان، كما لا يمكن إطلاق كلمة الإنسان على من يسند هذه الصفات إلى أي نبي.

أجل، إن العقل يوجب عصمة الأنبياء، كما يوجب قيام أتباع الأنبياء من الذين جعلوا شعارهم في الحياة حمل دعوة الأنبياء أن يجعلوا التطهر والعصمة من الذنوب والآثام مبدءاً وغاية لهم، فعند هؤلاء يكون اقتراف أي إثم أو ذنب أكثر ألماً من دخول جهنم.

العصمة مهمة جداً، وحياة الأنبياء العظام عليهم السلام شاهدة على هذه العصمة، وإذا استثنينا الهذيان الموجود في بعض الكتب المحرفة فليس هناك من أسند اقتراف الإثم إلى الأنبياء، والقرآن الكريم يتحدث عنهم بما يليق بمكانتهم الرفيعة.

المكانة التي يشغلها جبرائيل وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل في السماء يشغلها الأنبياء على الأرض، ولكننا لا نعرف من أنبائهم إلاّ ما سرده القرآن علينا.

وكما قلنا سابقاً فإن بعض العلماء يرون إمكانية اقتراف بعض الأنبياء قبل بعثتهم ونبوتهم بعض الهفوات، ولكن هذه النظرة محصورة لدى عدد قليل من العلماء، وهي نظرة مرجوحة، لذا فهي نظرة مجروحة، بينما يعتقد أكثرية العلماء أن الأنبياء عُصموا منذ طفولتهم، وهناك أدلة عديدة تؤيد هذه النظرة.

د- الأدلة على عصمة الأنبياء

يقول الله تعالى في معرضِ إمتنانه على موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً مِنّي﴾ (طه: ٣٩). ويفهم من هذه الآية أن الله تعالى لم يدع تربية موسى عليه السلام في قصر فرعون لا إلى فرعون ولا إلى أمه، بل رباه هو، فكيف لا يكون مثل هذا النبي معصوماً وهو منذ طفولته تحت رعاية الله وعنايته وتربيته؟!

يقول الرسول ﷺ في حديث له: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها.»[1] فإذا كان الله تعالى حفظ عيسى وأمه عليهما السلام من الشيطان منذ ولادته فكيف لا

(١) **البخاري**، الأنبياء، ٤٤؛ **مسلم**، فضائل، ١٤٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٨٨/٢

يكون معصوماً من الذنوب؟

وأراد رسول الله ﷺ مرتين أن يلهو في صباه، فذهب ليحضر حفلة عرس فألقى الله عليه النعاس فنام في المرتين.[1] إذن، فقد حفظه الله تعالى من رؤية منظر قد يكون حراماً، إذن، كان مصانا على الدوام مع أنه لم يكن قد بعث بعد نبياً، و لم يكلف بعد بمهمة الرسالة.

كان صبياً عندما اشترك في بناء الكعبة، فكان ينقل على ظهره الحجارة، فتركت الحجارة أثراً على جلد ظهره فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك، فخرّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال: «أرني[2] إزاري» فشده عليه،[3] بينما كان هذا الأمر اعتيادياً ولا بأس به، ولكن الله صانه من هذا، ذلك لأنه سيأتي يوم يأمر فيه بستر البدن وستتعلم منه الإنسانية دروس الأدب والحياء، إذن، كان ينشأ وهو بعد صبي تحت عناية الله وتربيته، وكان الله تعالى يعصمه من أهون الذنوب وأصغرها.

وكما تدقق سجلات رؤساء أركان المستقبل في الجيش بكل دقة وعناية لمعرفة ميوله واتجاهاته السياسية وأفكاره الاجتماعية، كذلك يقوم الله تعالى بحفظ أنبيائه وصيانتهم ورعايتهم منذ طفولتهم ويعصمهم من الوقوع في الزلل أو الإثم.. هذا هو رأى الجمهور.

---

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢/٣٥٠-٣٥١

(٢) أي أعطني.

(٣) **البخاري**، الحج، ٤٢؛ **مسلم**، الحيض، ٧٦؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢/٣٥٠

هم صفوة الإنسانية وزبدة فضائلها، يصفهم القرآن الكريم بـ﴿ٱلْمُصطَفَيْنَ ٱلأَخيَارِ﴾ (ص: ٤٧)، أي إن الأنبياء أشخاص مختارون من بين أفضل الناس وأكثرهم تميزاً.

هـ- العصمة خارج الأنبياء

والجانب الآخر من الموضوع هو: أيمكن أن يوجد معصومون من غير الأنبياء؟ أي أيعصم الله تعالى بعض الأشخاص الممتازين من غير الأنبياء من الذنوب؟ رأي جمهور العلماء في هذا الموضوع هو عدم وجود معصومين من غير الأنبياء، فمن المحتمل أن يقترف الجميع الذنوب كبيرة أم صغيرة، لأن العصمة خاصة بالأنبياء، وهناك حديث نبوي يؤيد هذا إذ يقول الرسول ﷺ: «كل بني آدم خطّاءٌ، وخير الخطائين التوابون.»[1]

ولكن يجب الانتباه هنا إلى نقطة معينة، وهي أن قولنا بوجود احتمال اقتراف الذنب لكل شخص من غير الأنبياء لا يعني وجوب اقتراف الذنوب فعليا من قبل الجميع، لذا يمكن القول بإمكانية حفظ الله تعالى لبعض الأشخاص الكبار -من غير الأنبياء- من علماء الدين الذين هم أئمة وقدوة للإنسانية، وهذا لا يعني تأييد الفكرة الشيعية حول عصمة الأئمة الاثني عشر. فمثلاً إن سأل أحدهم: أيمكن أن يَقترف الإمام الرباني أحمد السرهندي الذنب؟ نقول له: أجل.يمكن، ذلك لأن الإمام الرباني ليس نبياً، لذا يمكن من الناحية النظرية اقترافه للذنب، ولكن هل اقترف الإمام الرباني ذنباً في حياته؟ لا يمكن

(١) **الترمذي**، القيامة، ٤٩؛ **ابن ماجة**، زهد، ٢٠

إعطاء الجواب نفسه، لأنه ما من أحد يستطيع إثبات أنه اقترف ذنباً أو إثماً، أي أن احتمال وقوع الذنب لا يعني وجوب تحققه فعليا، فمن المحتمل أن الله تعالى يحفظ عباده المقربين من الوقوع في الآثام.

إن الله تعالى يحفظ الذين يسيرون في طريقه، والقرآن يشير إلى هذا فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال: ٢٩). فكما يتوضح من الآية الكريمة فهناك حفظ وصيانة من الله تعالى للمؤمنين المتقين إذ زودهم بخاصية وبحاسة يميزون بها الخبيث من الطيب فيبتعدون عن مواطن الإثم.

وتقول آية أخرى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

والذين نذروا حياتهم في سبيل هذا الدين وجعلوه غاية حياتهم وهدفها سيعاملون حسب الدستور الإلهي ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة: ٤٠)، ماداموا باقين على العهد سُيحفظون من قبله تعالى: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧).

إذن، فالذين يقومون بالخدمة الإيمانية والقرآنية بإخلاص سيكونون مظهراً لمثل هذا الضمان إن شاء الله ولن يتلوثوا بذنوب كبيرة، بل قد يُحفظون حتى من الذنوب الصغيرة، ولكن هذا الضمان مرتبط بتحقق شرطه وبالتقدير الإلهي، وليس بمقدور أحد أن يعطي ضمانات قاطعة لغير الأنبياء، ولكن إن تحقق هذا الحفظ

والصيانة وأصبح حدثاً واقعياً عند أحدهم عند ذلك نستطيع التحدث عن حفظ الله وصيانته له وعن عصمته ونقول إن الله تعالى حفظ الشخص الفلاني وعصمه من الوقوع في الإثم، ولكن لا يوجد ضمان في المستقبل لاستمرار العصمة إلا للأنبياء، أما عصمة الأنبياء فتشمل كل مرحلة من مراحل حياتهم.

ثم هناك عصمة مشاهدة بالتجربة والمعايشة حيث يلاحظ صيانة الله تعالى لبعض عباده المقربين وأخذهم تحت رعايته وحفظه. إذا وضعنا الأشخاص العظام جانباً، ونظرنا إلى أنفسنا لوجدنا في كثير من الأحيان أن شروطاً عديدة تهيأت للوقوع في الإثم، فإذا بظروف تستجد وتنقذنا وتحفظنا من الوقوع فيه وتبعدنا عنه وتدعنا في ذهول وفي حيرة من هذه العناية.

ثم إن قيام الصحابة والذين اتبعوهم في طريقهم بعمل حسنات كبيرة وخدمات عظيمة تجعل لهم سداً منيعاً يحول بينهم وبين الوقوع في الإثم في مستقبل أيامهم، فكأن سر الآية ﴿لِيغفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَرَ﴾ (الفتح: ٢) قد تجلى لهم وشملهم أيضاً، وهذا يعني ضمان الله تعالى لهم نتيجة أعمالهم الصالحة الماضية.. مثلاً قد يتوجه شخص إلى مكان يحتمل أن يقترف فيه الإثم، ولكن الله تعالى قد يكسر رجل هذا الشخص ويحول دون وصوله إلى ذلك المكان الآثم. وإذا كان سيرتكب الإثم بعينه أو بيديه يجعله لا يستطيع الرؤية ولا تستطيع يده الحركة أو الإمساك بشيء.. فيفهم من هذا أن الله تعالى يريد صيانة هذا العبد الذي يحبه، والمصائب الدنيوية التي تصيبه لحفظ آخرته لا تعد شيئا مذكوراً.

هناك حديث قدسي يتعلق بهذا الموضوع ورد فيه: «..وما تقرّبَ إليّ عبدي

بشيء أحبّ إليّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحِبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها.»[1]

وهذا معناه أنني سأريه الخير والجمال على الدوام وأحفظه من الشر والفساد والسوء فأكون عيناً له فلا يرى سوى الخير.. ستتقطر في قلبه الحكمة والبصيرة فيكون دائم الذكر لله تعالى، ولا يسمع إلا خيراً ولا تتوجه إرادته إلا إلى الخير، ومهما كانت هناك من عراقيل أمامه تحول بينه وبين الخير فسأذللها له.. هو قريب مني لا أرضى أن يجرح الإثم قلبه وجوارحه. وينتهي هذا الحديث هكذا: «وإن سألني لأعطينّه ولئنْ استعاذني لأعيذنه»

إذن، فإن الذنوب وإن كانت محتملة -حسبما يقول البعض- في حق الأنبياء والمقربين من عباد الله الصالحين، فإن الله تعالى يصون جميع أنبيائه ومن يشاء من عباده الصالحين من الآثام.

كان في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ شاب صالح يكاد لا يفارق المسجد ويجتهد في العبادات وفي أداء النوافل، وكان عمر ﷺ به معجبا، ولكن أمير المؤمنين بدأ يفتقده حيث لا يراه بين جماعة المصلين.. أليس هذا الأمر حكمة واحدة من حكم صلاة الجماعة في المساجد والتي يعدها بعض أصحاب المذاهب فرضاً وبعضهم سنة مؤكدة؟ الإمام يهتم بجماعته ويتفقد أفرادها، وإذا شعر بغياب أحدهم استفسر عنه ليعلم إن كان في ضيق أو واقع في مشكلة.. فما ظنك إن كان

(١) **البخاري**، الرقاق، ٣٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٦/٢٥٦

الإمام هو أمير المؤمنين عمر ﷺ وجماعة المصلين هم الصحابة؟ كان عمر ﷺ يعرف جماعته جيداً مهما زاد عدد أفرادها ويدقق أحوالهم.

وكان لهذا الشاب أب شيخ كبير، فكان إذا صلى العتمة انصرف إلى أبيه، وكان طريقه على باب امرأة فافتتنت به، فكانت تنصب نفسها له على طريقه؛ فمر بها ذات ليلة، فما زالت تغويه حتى تبعها، فلما أتى الباب دخلت، وذهب يدخل فذكر الله ﷻ، وجُلِّي عنه، ومثلت هذه الآية على لسانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١)، فخرّ الفتى مغشيا عليه، فدعت المرأة جارية لها فتعاونتا عليه فحملتاه إلى باب الدار، واحتبس على أبيه، فخرج أبوه يطلبه فإذا به مُلْقىً على الباب مغشياً عليه، فدعا بعض أهله فحملوه فأدخلوه، فما أفاق حتى ذهب من الليل ما شاء الله ﷻ، فقال له أبوه: يا بني ما لك؟ قال: خير. قال: فإني أسألك. فأخبره بالأمر. قال: أي بني، وأي آية قرأت؟ فقرأ الآية التي كان قرأ، فخرّ مغشيا عليه، فحركوه فإذا هو ميت؛ فغسلوه وأخرجوه ودفنوه ليلا. فلما أصبحوا رفع ذلك إلى عمر ﷺ، فجاء عمر ﷺ إلى أبيه فعزاه به، وقال: ألا آذنتني؟ قال: يا أمير المؤمنين، كان الليل. فقال عمر ﷺ: فاذهبوا بنا إلى قبره. فأتى عمر ومن معه القبر. فقال عمر: يا فلان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٥٦)، فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي ﷻ في الجنة مرتين.[1]

ما يهمنا في هذه الحادثة هو أن هذا الشاب لو اقترف الإثم لبقي الإثم محصوراً

(١) «**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**» لابن منظور ١٩/١٩٠-١٩١

به، ذلك لأنه لم يكن يحمل مسؤولية القدوة، ولكن لو اقترف نبي مثل هذا الإثم لكان شيئاً عظيماً تتزلزل منه الأرض والسماء، لأنهم في موضع القدوة والأسوة، لذا ألا يصونهم الله تعالى وهو الذي يصون حتى بعض عباده الصالحين.

يشرح الرسول ﷺ في حديث له صفات من يجد حلاوة الإيمان فيقول: «ثلاثٌ مَن كنّ فيه وَجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَف في النار.»[1] لذا، فإن أي مؤمن اعتيادي ذاق حلاوة الإيمان تكون العودة عنده إلى الكفر أشنع من قذفه في أتون النار، لذا فما بالك بإيمان الأنبياء عليهم السلام؟ ألا يرى أولئك الذين يسندون الذنوب إلى الأنبياء أن إيمان الأنبياء من القوة بحيث تمنعهم من هذا؟ حاشاهم من الوقوع في الإثم.

وإذا إراد أحدهم أن يعرف كيف أن الله تعالى حفظ الكثير من أوليائه – دعك من أنبيائه– وصانهم من الإثم فعليه أن يطالع الكتب التي تتحدث عن حياتهم مثل "حلية الأولياء" ليرى كيف أن الله تعالى حفظ المئات من أوليائه وصانهم من اقتراف الذنوب. فمثلاً وُضع طعام أمام أحد الأولياء، ولكن هذا الطعام كان قد شابه شيء من الحرام، وتناول الولي لقمة منه، ولكنه لم يستطع بلعها مع أنه مضغها لعدة دقائق، فعلم أن الحرام شاب هذه اللقمة فترك أكلها.[2] فإذا كان الله تعالى حفظ وليه من لقمة حرام واحدة فكيف لا يحفظ

---

(١) **البخاري**، الإيمان، ٨، الأدب، ٤٢؛ **الترمذي**، الإيمان، ١٠

(٢) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١٠/٧٤-٧٥؛ «**طبقات اللأولياء**» لابن الملقن ١٧٦

و- العصمة في الكتب السابقة وفي القرآن الكريم

أجل، إن العصمة شرط لا ينفك عن الأنبياء، وصفة من صفات النبـــوة، وكل نبي يأتي إلى الدنيا وهو متزين بهذه الصفة، إذن، فمن لم تكن فيه هـــذه الصفة فلا يكون نبياً.

قبل إثبات عصمة الأنبياء سنعطي بعض الأمثلة عن التوراة وعن الإنجيـــل وهي الكتب المحرفة التي أسندت الكثير من التهم إليهم، ثم ننتقـــل إلى تحليـــل الموضوع حسب الدستور القرآني، ونعطي الأجوبة اللازمة للمفتري، غير أننـــا نريد هنا الإشارة إلى أمر أو أمرين.

لكون الكتب السابقة أمثال التوراة والإنجيل والزبور قد تعرضت للتحريف ودخل الكلام البشري بين نصوصها فلا يمكن البحث عن الحقيقة فيهـــا، ولا المحافظة على سلامة الاتجاه الفكري فيها. لذا، فإن إسناد مناظر مؤذية لا تليـــق حتى بالإنسان العادي إلى الأنبياء ليس إلا نتيجة هذا التحريف، وهو بحد ذاتـــه أحد الأدلة على تعرض هذه الكتب للتحريف، ولو لم يكن هناك إلا هذا الدليل لكفى به إثباتاً لهذا التحريف.

لم يعط الله تعالى ضماناً لحفظ هذه الكتب، بينما قـــال في حـــق القـــرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نـــزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، أي أشـــار إلى أن القرآن مرجع إلهي وأنه محفوظ من قبله، لذا فهناك إجماع على أن أحكـــام القرآن سارية إلى يوم القيامة، ذلك لأنه تحت الحفظ الإلهي، إذن، فهو المرجـــع

الوحيد لمعرفة شؤون الأنبياء، وكل ما ورد في تلك الكتب المحرفة من أمور تخص الأنبياء وتخالف ما جاء في القرآن فلا حكم له، لأن الأحاسيس والمشاعر البشرية دخلتها واختلطت بها، بينما لا يحق لأي إنسان التحدث في موضوع النبوة ولا في موضوع العصمة، فالأنبياء وحدهم لهم الحق في تناول هذه المسائل الغيبية العائدة إلى الماضي، وذلك لاستنادهم إلى الوحي الإلهي. وبما أن رسولنا هو خاتم الأنبياء والمرسلين فلا يحق لأحد بعده التحدث في هذا الأمر، وقد تحدث في كل أمر ذي بال، وكان عيسى عليه السلام قد ترك له حق التحدث هذا عندما قال: [لن أكلّمكم كثيراً بعد، فإن سيد هذا العالم قادم عليّ] (يوحنا - الباب: ١٤، الآية: ٣١).

ومع أنني لا أحب تصوير الباطل إلا أنني سأتناول -وأنا مضطر- بعض الأمثلة على الافتراءات الموجودة في هذه الكتب المحرفة ثم أعرض أحكام القرآن الخاصة بهذه المواضيع. ولا أملك هنا سوى الالتجاء إلى الأرواح الطاهرة لهؤلاء الأنبياء طالباً منها الصفح عني لاضطراري إلى ذكر هذه الافتراءات وإلى نقل بعض النصوص الباطلة لكي أدحضها وأثبت عصمتهم وبراءتهم.

ز- **الافتراءات الشنيعة في الكتب السابقة حول الأنبياء**

وردت في سفر التكوين في التوراة افتراءات شنيعة حول سيدنا لوط عليه السلام وكيف أنه شرب الخمر وثمل ثم زنى بابنتيه وأن نسله دام منهما. تأملوا! إن الله تعالى خسف بأهالي سَدوم وعامورة الأرض، لأنهم لم يستمعوا إلى نبي طاهر مثل النبي لوط عليه السلام بل استهزؤا به وبدعوته إلى الطهر والعفاف فاستحقوا بذلك العقاب الجماعي. ولو لم يكن هناك شاهد آخر على عفة لوط عليه السلام

الذي هو ابن أخ النبي إبراهيم عليه السلام غير أنقاض هذه المدن المخسوفة وغير الجدران المتهدمة لبيوتها أما كان شاهداً كافياً؟ وهل يمكن أن ننظر إلى كتاب يحوي مثل هذه السطور الشنيعة على أنه كتاب إلهي؟

وفي الباب رقم ٣٨ في سفر التكوين يرد أن يهوذا بن يعقوب عليه السلام -الذي هناك احتمال في كونه نبياً- زنى بزوجة ابنه، وعن طريق هذا الزنى جاء أسلاف أنبياء بني إسرائيل أمثال داود عليه السلام وسليمان عليه السلام.

لا شك أن هذه الافتراءات القبيحة التي أطلقت على هؤلاء الأنبياء إنما هي أكاذيب شنيعة وقصص مختلقة لا أساس لها من الصحة. والرسول ﷺ يقول إن نسله دام بالنكاح منذ آدم عليه السلام.[١] ويقول في حديث آخر: «الأنبياء أولاد عَلاّت[٢]»[٣] وما دام لا يوجد حادثة زنا في النسب الذهبي للرسول ﷺ فإن هذا الحكم سارٍ على جميع الأنبياء، أليس الرسول ﷺ حفيد إبراهيم عليه السلام؟ ويهوذا -الذي سبق ذكره- هو أيضاً من أحفاد إبراهيم عليه السلام ولا يمكن حدوث الزنا في البيت النبوي، وفي الفقه الإسلامي يكره أن يكون الإمام الذي يصلي بالناس مولوداً من الزنا إن كان غيره موجوداً،[٤] فكيف يستطيع أن

---

(١) «**دلائل النبوة**» للبيهقي ١/١٧٣-١٧٤-١٧٥؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢/٣١٣-٣١٤؛ «**الخصائص الكبرى**» للسيوطي ١/٩٢-٩٣

(٢) "**أولاد علات**" هم الإخوة لأب واحد من أمهات مختلفة، والمعنى أن شرائعهم متفقة من حيث الأصول وإن اختلفت من حيث الفروع حسب الزمن وحسب العموم والخصوص.

(٣) **البخاري**، الأنبياء، ٤٨؛ **مسلم** الفضائل، ١٤٤

(٤) «**الهداية**» للمرغناني ١/٥٦

يكون إماماً للناس جميعاً أي يكون نبياً.. أهذا ممكن؟

وجاء في الباب ١١ من سفر الملوك أن سليمان عليه السلام ارتد في أواخر حياته وبدأ يعبد الأصنام.. كيف يُسند هذا الافتراء إلى نبي اختاره الله وأعطاه سلطنة في الدنيا وفي الآخرة؟ بل كان نبياً شاكراً لربه على أنعمه وعابداً له.. شكراً وعبادة تليق به كنبي.

يذكر القرآن الكريم أن المسيح عليه السلام كان روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ونفحة ربانية[١] وأن إبراهيم عليه السلام كان خليل الله[٢] وأن موسى عليه السلام كليم الله[٣] وأنه تعالى خاطب آل داود قائلاً ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاودَ شُكراً﴾ (سبأ: ١٣). هذه هي الأوصاف التي يصف الله تعالى أنبياءه بها.

ويتحدث العهد القديم عن النبي داود عليه السلام فيقول إنه طمع في زوجة قائده "أُوريّا" وتسبب في قتله ليأخذ زوجته.[٤] هذا التصرف الدنيء الذي يستغفر الإنسان العادي الله إن رآه في حلمه أسند إلى نبي كريم قال الله تعالى في حقه

---

(١) قال تعالى: ﴿يَا أَهلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُم وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بنُ مَرِيَمَ رَسُول اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلى مَرِيَمَ وَرُوحٌ مِنهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهوا خَيراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ (النساء: ١٧١).

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسلَمَ وَجهَهُ للهِ وَهُوَ مُحسِنٌ وَاتَّبع مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتخذ اللهُ إِبراهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: ١٢٥).

(٣) قال تعالى: ﴿ورُسُلاً قد قَصَصْنَاهُم عَلَيكَ مِنْ قَبلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقصُصْهُم عَلَيكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكلِيماً﴾ (النساء: ١٦٤).

(٤) انظر: صموئيل الثاني – الباب: ١١

﴿نِعْمَ الْعَبدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ (ص: ٣٠). وكتاب هذا شأنه كيف يكون من عند الله تعالى؟ إن مجرد تصور إمكانية وقوع هذا لا يعني سوى الجهل التام بالنبوة وبالأنبياء.. النبي داود عليه السلام كان نبياً كثير العبادة كثير البكاء.. يبكي في مجلسه من يسمعه.. كثير التأوه والأنين.. منيباً إلى الله تعالى، لم يحول وجهه مطلقاً عن خالقه، وشعاره العبودية،[1] وقد مدح الرسول ﷺ عبادة داود عليه السلام فقال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً.»[2]

كان ملكاً وخزينة الدولة عنده، ولكنه لم يفكر في الاستفادة منها ولو لشراء لقمة واحدة من الطعام، ويؤمن نفقته ونفقة أهله من حرفته اليدوية ومن كسبه الشخصي.. على هذا النبي الكريم الذي يحاسب نفسه على اللقمة الواحدة التي يتناولها، والذي كانت عبوديته لله تعالى أخص سمة من سماته وأكثر صفاته تميزاً.. على هذا النبي الكريم يفتري الكتاب المحرف ذلك الافتراء الشنيع والدنيء الذي لا يسعه الخيال والبعيد عن عالم وجو النبي داود عليه السلام بُعد المشرقين. فهو النبي المنزه الطاهر النقي الذي لا يمكن أن يخطر على خياله ذرة واحدة من هذه الحادثة المفتراة عليه.

وادعاء غريب آخر ورد في العهد القديم لا يستوعبه أي عقل، وهو مصارعة إسرائيل مع الله وتغلبه عليه.. وإسرائيل هنا هو يعقوب عليه السلام، إذن، فالفلسفة المادية

---

(١) قال تعالى: ﴿اصْبِر عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذكُر عَبدَنَا دَاودَ ذَا الْأيد إِنَّهُ أَوَّاب﴾ (ص: ١٧).

(٢) **البخاري**، التهجد، ٧، الصوم، ٥٩؛ **مسلم**، الصيام، ١٨٢؛ **الترمذي**، الصوم، ٥٧

سرت في الغرب –الذي ساح دماغه إلى عينيه– إلى درجة لم تعد تستبعد معها قيام الله تعالى وكأنه بشر اعتيادي –حاشاه– بمصارعة نبي من أنبيائه.

والقول الذي قاله حمزة ﷺ للنبي ﷺ قبل إسلامه يشكل جواباً لهـــؤلاء إذ قال ما معناه: يا محمد يا ابن أخي، عندما أجوب الصحراء بالليل أدرك أن الله أكبر من أن يوضع بين أربعة جدران.

إذن، فتصوروا كتاباً يدعون أنه كتاب إلهي لا يرقى إلى مستوى الإحساس والشعور الذي أبداه حمزة ﷺ للرسول ﷺ قبل إعلان إسلامه، فكيف يمكـــن النظر إلى هذا الكتاب على أنه صادر من الله تعالى وهو بهذه السطحية والعقم في نظرته لله ﷻ؟ وهل يستطيع الإنسان إذن، أن يصدق ما تزعمه هذه الكتب في حق الأنبياء؟ كلا، فالتوراة والإنجيل مملوءان بالافتراءات في حق الله تعـــالى وفي حق عباده من الأنبياء وَمَمْلُوءَانِ بالانحرافات.. أحدهما منبع للافتـــراءات، والآخر منبع للانحرافات.

يرد القرآن الكريم جميع الافتراءات حول الأنبياء، ذلك لأنه يـــأمر باتبـــاع الأنبياء اتباعاً مطلقاً، فهم أئمة الهدى والمرشدون الكاملون والأئمة الذين يجب اتباعهم في كل أمر من الأمور. وجميع الأنبياء مرايا تعكس لنا رضا الله تعالى، فلا يمكن أن تجد على هذه المرايا ذرة غبار، واحدة والقرآن الكريم يـــشير إلى هذا ويعرض لنا جوانبهم الجميلة ويأمر نبينا بذلك أيضاً.

وهناك سوء فهم في بعض ما ورد في القرآن الكريم حول الأنبياء، إذ فُهـــم إسناد بعض الأخطاء والذنوب إليهم، ووجد أنصار لهذا الفهم أحياناً، ويعـــود

سبب وقوعهم في هذا الخطأ إلى تعثرهم بالقوالب الضيقة لبعض الكلمات وإلى ضيق أفقهم. فلو كانوا أكثر دقة وتأملاً لاستطاعوا التغلب علـــى أفكـــارهم المسبقة واستطاعوا مقاومة بعض الإسرائيليات وفكروا مثل جمهـــور العلمـــاء وكانوا أكثر احتراماً للأنبياء وأكثر توقيراً لهم.

الفصل الثاني:

العصمة والأنبياء الآخرون

قبل الانتقال إلى الآيات الكريمة المتعلقة بهذا الموضوع نود التنبيه على بعض الأمور بشكل مختصر.

أولاً: إذا اختار أي نبي الشيء الحسن مع وجود الأحسن فهذا يعد زلة بالنسبة إليه، ولكن هذا لا يعد في مقاييسنا خطأ ولا زلة، لأن ما اختاره كان حسناً، غير أن النبي عليه أن يختار الأحسن، لأنه من المقربين. لنضرب مثالاً يقرب الموضوع إلى الأذهان:

لنفرض أن أحدهم يريد ختم القرآن الكريم، ولكن في كم يوم عليه أن يختمه؟ هنا يظهر أمامه ترجيحان، أحدهما أن يقرأ القرآن على مهل متأملاً معانيه فيختمه في عشرة أيام، والثاني قيامه بختم القرآن في سبعة أيام على أساس أنه دليل علي تمسك أكثر وحب أكثر لكلام الله تعالى.

لنفرض أنه اختار الترجيح الأول وختم القرآن في عشرة أيام، ولنفرض أيضاً أن رضا الله تعالى كان يتحقق بشكل أكثر وأفضل في الترجيح الثاني، فهنا يكون نيل رضا الله هو الأحسن، بينما يكون ما قام به هو الحسن، إذن، فلا يوجد هنا ذنب لكي يقال له: لقد أذنبت وأخطأت، كل ما يمكن القول هو أنه اختار الحسن مع وجود الأحسن، وليس من الصحيح هنا إسناد الذنب إليه.

هذا هو الوجه الحقيقي للأمور التي يقوم فيها الأنبياء بالاختيار حسب اجتهادهم الشخصي، لذا لا يمكن إسناد اقتراف الذنب إليهم، وسنعود فيما بعد إلى هذا الموضوع.

ثانياً: يُعد الأنبياء قبل كل شيء أئمة المجتهدين حيث يجتهدون في المواضيع التي لم ينزل فيها الوحي سواء أكانت أحكاماً أم أموراً شخصية أم أموراً اجتماعية، وفي معظم الأحوال تتوافق هذه الاجتهادات تماماً مع المراد الإلهي، وفي أحيان قليلة قد لا تصيب تماماً هذا الهدف مع أنهم يتحرون الرضا الإلهي على الدوام، وقد يُعد بالنسبة لمستواهم الرفيع خطأ، لأن عليهم أن يصيبوا هدف الرضا الإلهي إصابة دقيقة، ولكن خطأهم في الاجتهاد لا يُعدّ ذنباً أبداً ولا يُخلّ بعصمتهم، لذا فلا يُحاسبون عليه. ولو فرضنا العكس –وهو فرض محال– فهذا ليس من شؤوننا.

ثالثاً: إن مثل هذه الأمور البسيطة حدثت قبل نبوتهم، والزلة هنا تأتي بمعنى التزلزل البسيط، ولا تعني الوقوع والانكفاء على الأرض. والآن لنعط بعض الأمثلة الشاخصة لما عرضناه، ولنحول نظرنا أولاً إلى أب البشرية آدم عليه السلام.

أ- **آدم** عليه السلام

يشرح القرآن الكريم موقف آدم عليه السلام فيقول: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه: ١٢١-١٢٢). واستعملت الآية تعبير "الاجتباء"، والاجتباء: الاختيار والاصطفاء، وهي عملية إنقاذ الشيء من أن

يترسب إلى القاع أو من أن يتفرق يميناً وشمالاً كالفقاعات، أي أن الله تعالى أنقذ آدم من الوقوع في مثل هذا الوضع.

وسنتناول فيما بعد معنى كلمة "عصى" الواردة في الآية، وسنرى أنها لا تشير إلى معنى العصيان. والآن لنتابع موضوع آدم عليه السلام. نستطيع تعلم معنى الطاعة من آدم عليه السلام، فما أن زل حتى توجه إلى ربه الذي حفظه من السقوط: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

كان ذلك زلة، ولكن الله تعالى هداه إلى الطريق القويم بعد هذه الزلة والى الهداية، ونعلم من هذا أن هذه الزلة كانت قبل اجتبائه، ففي هذه الفترة كان آدم عليه السلام مثل نبتة انحنت أمام هبوب عاصفة ولكنها اعتدلت مثل سابق عهدها بعد انقضاء العاصفة و لم تقتلع من جذورها. والرسول ﷺ يشبه المؤمن بالزرع ويشبه الكافر بشجرة الأرز التي لها منظر ولكن إن قلعتها الريح العاصفة لم تستطع أن تعتدل مرة أخرى: «مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفيءُ ورقُهُ من حيث أتتها الريح تُكَفّئها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكُفّأُ بالبلاء. ومثل الكافر كمثل الأرزة صمّاءُ معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء.»(١)

فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار علمنا أن زلة آدم عليه السلام كانت قبل نبوته. ثم إن زلة آدم عليه السلام كانت عبارة عن نسيان وعدم تذكر، والله تعالى يخبرنا بذلك فيقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾(طه: ١١٥).

(١) **البخاري**، التوحيد، ٣١؛ **مسلم**، صفات المنافقين، ٥٨-٥٩؛ **الترمذي**، الأدب، ٧٩

ويقول في موضع آخر: ﴿وَقُلْنَا يَا ادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾(البقرة: ٣٥).

ولكن آدم نسي هذا، والنسيان طبيعة بشرية، ويقول الرسول ﷺ وهو يحلل هذا الموضوع: «ونُسِّي آدم فنُسِّيتْ ذريتُه»،[1] وقد شرح الرسول ﷺ -الذي يعرف الطبيعة البشرية أفضل معرفة- هذا الموضوع بهذا الشرح الجميل.. الإنسان ينسى، وآدم إنسان إذن، فهو ينسى وقد نسي فعلاً، وفي هذا الحديث يشير الرسول ﷺ إلى تأثير الوراثة على تصرفات الإنسان وسلوكه، وعلى المختصين في هذا المجال الاستفادة من هذه الإشارة. إذن، فقد جاءنا النسيان من أبينا آدم عليه السلام، فالله تعالى وضع هذا في ماهية آدم عليه السلام وفي كروموزوماته، لذا لا نستطيع نحن التخلص من هذا. وعندما يذكر الله تعالى أن آدم نسي فهو يقطع سوء الظن ويبعده، ثم يقول بعده مباشرة: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه: ١١٥) أي لم نجده عاقداً عزمه على فعل تلك الزلة و لم يقصدها قصداً، بل بدرت منه في ساعة نسيان.

ماذا كانت تلك الفاكهة المحرمة؟ هناك وجهات نظر عديدة في هذا الموضوع لا نستطيع سردها كلها هنا، وإلا قلبنا هذه الصفحة إلى دكان بائع الفواكه، الشعير، الحنطة، الرز، التمر، العنب.. الخ، ولا يغير نوع الفاكهة الموضوع أو يؤثر فيه، فالمهم هو ما حدث من وضع ومن مشكلة بعد أكل هذه الفاكهة. أما قناعتنا في هذا الموضوع فتختلف عما قيل حتى الآن بعض الشيء.

---

(١) **الترمذي**، تفسيرسورة (٧) ٣

الفاكهة المحرمة هي الغريزة البشرية التي لم يكن بمقدور آدم عليه السلام الوقوف في وجهها. وبفضلها تكاثر النسل البشري، والأمر نفسه كان وارداً بالنسبة لأم البشرية حواء، ونحن نرى -والله أعلم- أن الاقتراب من الشجرة يأتي بمعنى العملية التي يتكاثر بفضلها الجنس البشري.

ومع ذلك فلا نقول إن أصح رأي هو ما نقوله، ولكننا نعتقد أن من المفيد إضافة هذا الرأي وهذا القول إلى جانب الآراء الأخرى في هذا الموضوع، فإن كان صحيحاً فهذا فضل من الله، وإلا فإننا نلوذ برحمته الواسعة.

أحب أن أنبه إلى أمر قبل الانتقال إلى الحكم الديني للنسيان والخطأ إذ يتوجب علينا وصل الحوادث المتفرقة التي يقصها القرآن علينا ثم عرضها بشكل تام.. والأمر نفسه وارد هنا، ففي مرحلة نبه آدم عليه السلام وحوّاء من عدم الاقتراب من الشجرة أو من الفاكهة المحرمة، ولكن كم من الزمن مر على هذه المرحلة؟ لا أحد يعرف هذا، ولكن الظاهر أن هذا الزمن كان طويلاً بحيث ساعد على نسيان آدم لهذا النهي، ثم تم تناول الفاكهة المحرمة بعد هذا النسيان.

والحساب مرفوع عن الخطأ فالرسول ﷺ يقول: «رُفِع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه.»[1] وألا يعلمنا القرآن الكريم أن نستغفر الله تعالى إن وقعنا في هذه الأمور؟ ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). أليست هذه الآية من الورد الذي نقرؤه كل يوم قبل النوم؟

---

(١) «**فيض القدير**» للمناوي ٣٤/٤. وانظر في الروايات المختلفة للحديث إلى: **البخاري**، الحدود، ٢٢، الطلاق، ١١؛ أبوداود، الحدود، ١٧؛ **الترمذي**، الحدود، ١؛ **ابن ماجة**، الطلاق، ١٥، ١٦

نسي آدم عليه السلام وقطف الفاكهة المحرمة خطأً. فإذا كان هذا الأمر تم جـــراء الخطأ والنسيان الذي يقول الرسول ﷺ إن الحساب مرفوع عنـــهما، فكيـــف إذن، يعد آدم عليه السلام آثما أو مذنباً؟

فإذا كان الإنسان الاعتيادي يجتنب ما هو ظلم وعصيان لدى الله تعـــالى، فكيف لا يجتنب الأنبياء الظلم والعصيان وهم الأشخاص المصطفون والمختارون من قبله تعالى؟ أرى أن قول العكس غفلة كبيرة، بل إن بعض العلماء كرهـــوا قراءة هذه الآية بهذا المعنى.. لا شك أنه يستطيع أي إنسان قراءة هـــذه الآيـــة وشرح معانيها على ألا يكون وسيلة لفهم خاطئ، لأن آدم عليه السلام نبي ولا يمكن أبداً التحدث عن نبي وكأنه شخص عادي. وأسلوب القرآن حولهم يتأتى من زاوية درجة قربهم من الله تعالى وليس من زاوية تصرفاتهم، وكـــان القـــدماء يوضحون هذا بقول "حسنات الأبرار سيئات المقربين." [1]

وحتى في القانون البشري نرى أن موظف الدولة إن اقترف ذنباً تـــزداد عقوبته، فإن كان مخالف القانون حاكما أو محاميا ممـــن يعـــرف القـــانون تضاعفت عقوبته. فالأنبياء موظفون من قبل الله تعالى، وهم يعرفون أكثر من غيرهم ماذا يعني اقتراف الذنوب، لذا كان من الطبيعي مضاعفة عقوبة مـــن كان بهذا الموقع إن اقترف ذنباً. ثم ألا يعد اقتراف الذنب في حرم الكعبة شيئاً أكبر وأشنع من اقتراف الذنب نفسه في الأماكن الأخرى؟[2]

---

(١) "**كشف الخفاء**" للعجلوني، ٤٣٨/١.

(٢) قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥).

ألا يذكر القرآن الكريم مضاعفة العقوبة لزوجات الرسول ﷺ إن اقترفن الذنب؟[1]

ذلك لأن الكعبة رمز للقرب من الله تعالى، والناس هناك يُعدون ضيوف الرحمن، وكون أي امرأة زوجة للرسول ﷺ رمز أيضاً للقرب من الله تعالى، لأن بيت الرسول ﷺ هو البيت الذي يتنزل عليه الوحي، ويدخله جبريل عليه السلام على الدوام، لذا كان من الطبيعي مضاعفة العقوبة لأي ذنب يقترف في هذا البيت وذلك على قاعدة: "الغُرْم بالغُنْم"، فمع زيادة المغنم يزداد المغرم.

وهذا هو أيضاً وضع الأنبياء عليهم السلام، فقد شرفوا بالقرب من الله تعالى، وملك الوحي معهم في غالب الأحوال، لذا فمن الطبيعي أن يعد أقل زلة عندهم بمثابة ذنب، وأن تقدم الزلة وكأنها ذنب، لأن طبيعة موقعهم تستوجب هذا، ولأكرر هنا فأقول بأن هذا الذنب وهذه العقوبة أو الجزاء لا يمكن تقييمه من زاوية ذنب أو جزاء إنسان عادي أو ولي من الأولياء، بل هو صورة ذنب من زاوية وضعهم وموقعهم كأنبياء فقط وليس ذنباً حقيقياً، لذا لا يجوز إطلاق كلمة الذنب هنا.

ثم لنفرض أن الله تعالى أمر آدم عليه السلام بعدم ملامسة زوجته والصوم عن مقاربتها، ولكن لكون آدم عليه السلام قد تعلم الأسماء كلها فهو يعرف إذن، ما سيحل به بشكل من الأشكال. أجل، كان يعلم أن الدوامة التي دخل فيها

(١) قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِي مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعفَينِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٠).

ستقلبه مرات ومرات وتوصله -بتأثير من الدافع المركوز فيه- إلى النقطة التي خُطط لها.. فالإرادة الإنسانية التي تقاطعت في لحظة في عالم الأسرار في نقطة معينة مع المشيئة الإلهية أدت إلى هذه النتيجة، فإن لم نقل إنه نسيان -والقرآن الكريم يقول إنه نسيان- فعلى الأقل يجب مواجهته بمرونة.

وما دمنا وصلنا إلى هذه النقطة أرى من المفيد إيراد الحديث النبوي الذي يرويه البخاري ومسلم والترمذي، إذ يقول الرسول ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه أتلومني على عمل عملته كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض. قال: فحج آدم موسى.»[1] وهذا الحديث يبين أن آدم عليه السلام كان على حق في هذا النقاش، وهذا يعني أنه لم يقترف ما يعد إثماً بفعله ذلك.

عُلّمَ آدم عليه السلام الأسماء كلها -والمسميات كذلك- فعاش حياته مبهوراً في خضم أسرار هذه الأسماء، لذا فمن الغفلة ادعاء إمكانية قيام مثل هذا الشخص باقتراف ذنب عن سابق إرادة وتصميم. واحتمال آخر هو أن النهي عن تلك الفاكهة كان نهيا مؤقتا، وأن آدم عليه السلام كان يعرف هذا، ولكنه اجتهد برأيه ومد يده لتناولها قبل الأوان.. مد يده وأفسد صومه، وهذه العملية التي تعد الآن ثواباً إن تمت في دائرة الحلال كانت محرمة بشكل مؤقت على آدم عليه السلام، أو أن ذلك النهي كان بالنسبة لقربه من الله تعالى، لذا عُدّ تصرفه هذا زلة.

---

(١) **البخاري**، تفسير سورة(٢٠) ١، ٣؛ القدر، ١١؛ **المسلم**، القدر، ١٣-١٥؛ **الترمذي**، القدر، ٢

والمقياس الذي عرضناه في حق آدم عليه السلام سيفيدنا في فهم وضع الأنبياء الآخرين، إذ سنفهم أنهم متصفون بصفة العصمة، فالزلات المسندة إليهم ليست ذنوباً بالمعنى الذي نفهمه نحن من الذنب.

ب- **نوح** عليه السلام

ناجى نوح عليه السلام ربه لينقذ ابنه فتم تنبيهه، وقد يبدو هذا في النظرة الأولى زلة بالنسبة لنبي، لندقق النظر في وضع هذا النبي الكريم الذي يعد الأب الثاني للبشرية لنعرفه عن قرب في ضوء نور القرآن الكريم. يورد القرآن الكريم دعاء نوح عليه السلام وجواب الله تعالى وتنبيهه له: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: ٤٥).

كان الانفعال قد سرى في كيان نوح عليه السلام وهو ينتظر الحادثة التي ستقع على رأس أمته، وكان قلقاً على مصير ابنه كأي إنسان آخر، فهل كان قلقه للمصير الذي سيلقاه ابنه أم لأن ابنه سيموت كافراً؟ لا شك أن قلقه لم يكن منحصراً على دنيا ابنه وعلى بدنه وجسمه بل علىحياته الأبدية وحياته الخالدة وهو الذي يعرف جيداً السعادة الأبدية التي هيأها مولاه، وكذلك عذابه الأليم، ثم أهناك أي والد لا يرتجف شفقة من مثل هذا المصير المرعب لابنه؟

أمام هذا الأنين الصادر من هذا القلب المكلوم جاء الإرشاد الإلهي الذي بين حقيقة الأمر: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: ٤٦).

إنه ليس من أهلك، صحيح أنه من صلبك وأن امرأتك ولدته وتربى في

حجركم، ولكن أهلك هو من سار على دربك، ذلك لأنه اقترف عملاً غير صالح ودخل إلى دائرة فاسدة وتمرد عليك ودخل بين الكفار فقادوه إلى الغرق في المياه، وقاده الغرق إلى خسران حياته الأبدية، فلا تطلب مني شيئاً لا تعلمه حق العلم. إني أعيذك أن تكون من الجاهلين، ذلك لأنك أهل للعلم وأهل للمعرفة وللحب، لأنك تعلم مولاك الحق، فلا يليق بك هذا الطلب وأنت من الأنبياء والمقربين إليّ.

هذه هي الزلة الوحيدة لنوح عليه السلام الذي عاش تسعمائة وخمسين سنة إذ دعا من الله أن ينقذ ابنه المشرف على الغرق، فلماذا قام بهذا الدعاء وبهذا التوسل؟

أولاً: لقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى أوصاه أن يحمل أهله والمؤمنين في السفينة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (هود: ٤٠). كان هذا هو الوعد الذي أخذه نوح عليه السلام من ربه، وكان طلبه ودعاؤه مستنداً إلى هذا الوعد، ولكنه لم يكن يعلم صدور الحكم الإلهي ضد ابنه، لذا لم يكن طلبه إلا طلبا لوعد الله تعالى.

بنى نوح سفينة استناداً إلى الوحي، ودعا الناس إليها بناء على أمر الله تعالى، كان أفراد عائلته بالطبع ضمن هؤلاء المدعوين، دعا أفراد عائلته ولكن ها هو يشاهد ابنه وقد حاصرته الأمواج، فأسقط في يده ولم يجد هناك إلا ملجأ واحداً يلجأ إليه وهو ربه الذي يبقى المنقذ الوحيد عندما تنسد الأبواب جميعها.. التجأ إليه لإنقاذ ابنه، فلم يبق أمامه سوى باب الدعاء من ربه.

وقد فوجئ عندما أخبره ربه أن ابنه ليس من أهله، كان يحسب أنه من أهله لأنه ابنه، ولكنه عندما نبه رجع حالاً إلى ربه وأناب إليه واستغفره بهذا الدعاء الحار: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: ٤٧). إذن، فعندما التجأ نوح عليه السلام بطلبه إلى ربه لم يكن عالماً بالأمر، وعندما علم أسرع بالاستغفار، فهل يمكن إطلاق وصف الخطأ على هذا التصرف؟ وأي ضمير يرضى بذلك؟

ثانياً: ماذا كان طلب نوح عليه السلام؟ لقد طلب نوح من ربه هداية ابنه، وأليس هذا شيئاً طبيعياً لأي أب؟ أب هو في الوقت نفسه نبي يبذل كل ما في وسعه لهداية الناس جميعاً، لذا ألا يعد تضرع نوح إلى ربه لإنقاذ الحياة الأبدية لابنه تصرفاً طبيعياً بل تصرفا فاضلاً وهو الشخص الرحيم الذي مد جناحي رحمته ليظلل الناس جميعاً؟

أجل، نحن هنا أمام رحمة نبوية، هذه الرحمة التي تتجاوز خيالنا نحن، ولولا هذه الرحمة الواسعة لما كان بإمكانهم حمل عبء النبوة على أكتافهم. فكروا في أم من الأمهات.. فلكي تقوم هذه الأم بضم وليدها إلى صدرها والقيام بإشباع كل حاجاته ومتطلباته يجب أن تزود برحمة وبشفقة كبيرة، إذن، فما بالك بالرحمة المهداة إلى أي نبي من الأنبياء أو إلى أحد الأنبياء والكبار من أولى العزم وهم الذين فتحوا أذرعهم لاحتضان كل المطالب المشروعة الدنيوية منها والأخروية لبني الإنسان بأجمعهم!

ويقول القرآن الكريم وهو يصور الحالة النفسية لرسولنا ﷺ أمام المنكرين

والكفار: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَفسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤمِنُوا بِهَـذَا الْحَـدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف: ٦)، ويشرح رسول الله ﷺ وضعه منا بهذا المثل الذي يضربه إذ يقول: «إنما مَثَلي ومَثَلُ أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدوابّ والفراشُ يقعنَ فيه، فأنا آخذُ بحُجَزِكمْ[2] وأنتم تَقَحَّمُون فيه.»[3]

إذن، فهذا هو مبلغ الرحمة النبوية، وكان نوح عليه السلام نبياً، لذا كان يحمل الشفقة نفسها. ولكنه ما إن سمع التنبيه الإلهي حتى أناب إلى الله تعالى وتخلى عن دعائه واستغفر ربه.

والآن لنر التشابه بين دعائي نوح عليه السلام وآدم عليه السلام.. لقد توجه كلاهما إلى الله عندما علما بخطئهما وتضرعا إليه بدعاء متشابه وبأسلوب متشابه، لأنهما كانا من خميرة متشابهة وخلق متشابه.. درسا في المدرسة نفسها وعلى يد المعلم علام الغيوب نفسه، لذا كان عليهما أن يرجعا عن الخطأ بالشكل نفسه، ومع أن القرآن الكريم استعمل كلمات مختلفة في بيان إنابتهما وأوبتهما إلا أنه استعمل الأسلوب نفسه.

ثالثاً: هناك قاعدة دينية تقول: "نحن نحكم بالظاهر"، ولهذا اشترك رسول الله ﷺ في الصلاة على عبد الله بن أبي مع علمه بنفاقه، كما اشترك في الصلاة

---

(١) **باخع**: مُهلِك.

(٢) **الحجز**: جمع حجزة، وهي معقد الإزار والسراويل

(٣) **مسلم**، الفضائل، ١٧؛ وانظر إلى الروايات الأخرى وبألفاظ مختلفة في: **البخاري**، الأنبياء، ٤٠؛ **الترمذي**، الأدب، ٨٢

على كثير من المنافقين و لم يهتك سترهم،[1] ذلك لأنهم كانوا في الظاهر يؤدون الصلاة ويصومون ويقومون بأداء جميع الشعائر الدينية.

لذا، فهناك احتمال أن موقف ابن نوح عليه السلام كان الموقف نفسه، فربماكان ابنه يتظاهر بالإيمان على الدوام مع كونه منافقاً أو أن نفاقه ظهر على السطح في تلك الأثناء، وكان نوح عليه السلام يحكم عليه حسب ظاهره ويعده من أهله، أما الحكم حسب الظاهر فلا يُعد ذنباً في أي وقت من الأوقات، لذا وبناء على هذا لا يكون نوح عليه السلام قد اقترف ذنباً، فقد قام بواجبه.. وتصوروا هذا النبي الكريم الذي عاش تسعمائة وخمسين سنة وبذل كل جهده طوال حياته هذه، وتعرض إلى الهزء والسخرية وأسند إليه الجنون، ولكنه لم يهتز أبداً و لم تفتر عزيمته أبداً مع أن الذين آمنوا به كانوا قلة قليلة كما يخبرنا القرآن الكريم: ﴿وَمَا اٰمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠).

ويستطيع من يريد فهم النبي نوح عليه السلام قراءة سورة نوح، عند ذلك سيفهم كيف أن هذا النبي الكريم بعيد عن اقتراف أي ذنب بُعد الثرى عن الثريّا، ندعو من الله تعالى أن يجعلنا من الفائزين بشفاعة نبينا وبشفاعة نوح عليه السلام.. آمين.

ج- **إبراهيم** عليه السلام

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وخليل الله.. الإنسان الذي لم تطرف عيناه خوفاً من أي شيء.. الإنسان الكبير الذي وجد البرد والسلام داخل النار.. الشخص

(١) **البخاري**، تفسير سورة (٩) ١٢، ١٣؛ **المسلم**، فضائل الصحابة، ٢٥؛ **الترمذي**، تفسير سورة (٩) ١٢، ١٣

المجتبى الذي كان ينقل جو الجنة الذي كان يحمله داخل جوانحه إلى كل مكان يذهب إليه حتى وإن كان ذلك جحيماً، وبينما يفرح كل إنسان عند انتسابه لرسول الله ﷺ كان الرسول ﷺ يفرح لشبهه بإبراهيم عليه السلام إذ يقول إنه عندما عُرض عليه الأنبياء في معراجه: «ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه فإذا أقرب من رأيت به شَبَهاً صاحبكم»[1] يعني نفسه. والآن لندقق حدود عصمته ونفهم ماهية العصمة عنده كذلك.

١. الكوكب والقمر والشمس

لم يعبد إبراهيم عليه السلام في أي مرحلة من مراحل حياته الكواكب و لم يقترب من الشرك. وإن إطلاقه كلمة "ربي" على كل من الكوكب والقمر والشمس لا علاقة له مع الشرك لا من قريب ولا من بعيد.

والآن لنتابع من القرآن الكريم هذا الموضوع: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٧٦-٧٨).

ولد إبراهيم عليه السلام حنيفاً، لذا لا يتصور أنه قال "ربي" بشكل حقيقي للكوكب والقمر والشمس، ذلك لأن من يتوهم ذلك فكأنه يتناسى عن عمد الآيات التي سبقت هذه الآيات وهي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ

(١) **مسلم**، الإيمان، ٢٧١؛ **الترمذي**، المناقب، ١٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٣٤/٣

أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٧٤)، والآية التي تأتي بعد ذلك تقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥).

إذن، فمثل هذا النبي المنفتح قلبه على مثل هذا العالم الغيبي لا يمكن أن يعد الكواكب -ولو بشكل مؤقت- ربّا له مهما قالت الكتب المملوءة بالأساطير هذا. ثم إن الله تعالى لم يره ملك السموات والأرض فقط، بل أراه الملكوت كذلك، أي العالم الموجود وراء أستار هذا العالم الظاهري، وهو بهذا من الواصلين إلى الإيمان اليقيني.. بل إلى مرتبة حق اليقين التي هي المرحلة الأخيرة للإيمان اليقيني، لذا بعدما شرحت الآيتان السابقتان كيف حصل إبراهيم عليه السلام على الإيمان اليقيني نعلم أن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يوصل إلى قومه بعض الحقائق في هذه الحادثة.. إذن، لنتناول الموضوع من هذه الناحية لنقوم بالتحليل:

في البدء نقول إن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون النجوم مثلما عبد العرب في مرحلة من مراحل الجاهلية "الشِّعْرَى" التي أصبحت إلهاً يُعبد لكونها نجمة لامعة وأكبر من غيرها حسبما كانت تبدو لهم، وكان أهل بابل القدماء يعبدون النجوم أيضاً، هنا نعلم أن إبراهيم نظر إلى هذا الكوكب الذي كان يبدو -لبعده- صغيراً وأثار انتباه من حوله إليه، ثم قام بتنبيه صغير ومعقول لهم يطابق الظاهر.. كان ما يقوله صحيحاً لا يخالطه أي كذب، وكان في كل دليل يقدمه لهم يهدم إلهاً لهم في السماء وإلهاً يمثله في الأرض.[1] أجل، كان

(١) كان قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون النجوم، وكان لكل نجم صنم يمثله في الأرض.

إبراهيم عليه السلام يهدم بمنطقه أصنامهم واحداً إثر آخر.. كانت هذه هي مهمته.. هدم الأصنام.

قدّر بعض المفسرين وجود همزة الاستفهام في أول جملة "هذا ربي"[1] أي أن الجملة المقدرة هي سؤال إنكاري: "أهذا ربي؟" والجواب الطبيعي: "كلا.. ليس هو"، هذا أحد التفاسير، غير أن تفسيرنا للموضوع هو: تظاهر إبراهيم عليه السلام أنه مهتم بما يعده قومه آلهة، وذلك كخطة لكي يجرهم إلى المستوى الذي عينه للنقاش معهم، ولم يكن هناك حل آخر أمامه غير هذا، وأعاره قومه آذانهم له على اعتبار أنه يتكلم عن آلهتهم، ولكن عندما انتهت المناظرة بينه وبينهم بالجمل الأخيرة لإبراهيم كانت جبهة الإيمان قد انتصرت على جبهة الكفر والشرك.

لقد تجول إبراهيم عليه السلام مع قومه بين الكوكب والقمر والشمس وأراهم أن الجميع يأفلون.. كلهم يبزغون ويصعدون إلى كبد السماء ثم يأفلون في النهاية، والذي يولد ثم يكبر ثم يأفل ضمن قوانين معينة لا يمكن أن يحكم الكون، فكيف يستطيع من كان حادثاً الهيمنة على حادث مثله؟ كانت الجملة الأولى له لقومه وهي: ﴿لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أول تنبيه لهم.. يجب ألا يكون في القلب محل للآفلين وللغاربين، ولا يكون الآفلون أهلاً للسير وراءهم، لأنهم يختفون ويأفلون.. أعطوني حبيباً لا يأفل.. حبيباً يكون أقرب إليّ مني.. حبيباً يعرف جميع خلجات قلبي ورغباته، وعنده القوة والمقدرة على أن يحقق كل هذه الرغبات.

---

(١) «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ١٩/٧؛ «**روح المعاني**» للآلوسي ١٩٩/٧

ثم يخطو خطوة أخرى.. يريهم القمر.. ولكنه يأفل أيضاً بعد مدة، فيقول جملة يتعرض لهم بها من طرف خفي ويريهم ضلالتهم: ﴿لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام: ٧٧).

وفي الخطوة الثالثة ينظر إلى الشمس التي هي كبير الآلهة عندهم.. بدأ من الصغير وهدم إلهين صغيرين عندهم، والآن جاء دور الإله الأكبر، لذا عندما أفلت الشمس وغربت خاطب ضمائر القوم الموجودين هناك: ﴿قَالَ يَا قَومِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكُونَ﴾ والآن جاء دور الجملة الأخيرة إذ توجه إليهم بهذا الكلام الحار الخارج من أعماق قلبه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩). ولو أن إبراهيم عليه السلام قال هذه الجملة منذ البداية لما استمع إليه أحد.. راعى مستواهم ووضعهم وعقليتهم وتدرج معهم فبدأوا يستمعون إليه، ولو لم يتدرج في كلامه معهم لما وجد أحداً يستمع إليه ولما استطاع أن يؤثر فيهم.

وهكذا فضّل إبراهيم عليه السلام بفطنته اختيار هذا السبيل لكي يظهر حقيقة "لا إله الا الله" لكل فرد في قومه، وهذا المنطق مطابق تماماً للمنطق القرآني، وكيف لا وكلاهما استقى من المنبع نفسه وعكسا الحقيقة نفسها.

أود هنا جلب أنظاركم إلى نقطة معينة، فإبراهيم عليه السلام يقول: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكُونِ﴾ وهذه الجملة جملة إسمية، والجمل الإسمية في اللغة العربية تفيد الاستمرار، وهذا معناه: إنني كنت بريئاً ولا أزال بريئاً مما تشركون. إذن، فلم يتفوه إبراهيم عليه السلام بأي كلام ولم يقم بأي تصرف يستشف منه أي شرك،

والتعابير التي استعملها لم تكن إلا خطة محكمة من خططه الحكيمة، لذا فلا يوجد شيء في كلامه يخل بعصمته.

٢. إحياء الموتى

والشيء الثاني الذي يُزعم أنه زلة هو طلبه من ربه إحياء الموتى. والقرآن الكريم يشرح هذه الحادثة فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

كان إبراهيم عليه السلام بطلاً من أبطال الروح وعالم المعاني والإيمان الذي يبحث دائماً عن المزيد، وظل قلبه مفتوحاً على الدوام للمزيد من معرفة الله، لذا نراه يريد اقتحام آفاق جديدة من المعرفة بمشاهدة كيفية إحياء الله تعالى للموتى.

أكان لدى إبراهيم عليه السلام شك أو شبهة في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى؟ كلا على الإطلاق، فقد تضرع إلى الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، إذ لم يقل لله تعالى: أتستطيع أن تحيي الموتى؟

واستجاب الله تعالى لطلبه فأمره أن يأخذ أربعة طيور ويجعلهن يألفنه ثم يذبحهن ويقطعهن ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا ثم يدعوهن فيأتينه سعياً: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ (البقرة: ٢٦٠).

والحقيقة أن الله تعالى أراه مثالاً واحداً من أمثلة الإحياء التي تتكرر في كل موسم ربيع آلاف المرات، غير أنه أكرم نبياً عظيماً من أنبيائه فقدم له

هدية خاصة في هذا المجال لكي يرتشف الإيمان اليقيني وينهل من منهل الإيمان من درجة الاطمئنان.. كان إبراهيم عليه السلام يعب من هذا المنهل العذب ولا ينطفئ ظمأه وعطشه.. فلم يكن طلبه هذا ناتجاً عن شك أو شبهة أو تردد وهذا ظاهرمن سؤاله، إذ لم يقل لله تعالى: "هل تقدر أن تحيي الموتى أم لا تقدر؟" وهذا يشبه قولك لرسام كبير: "دعني انظر إليك وأنت ترسم لوحة" أو لخطاط فنان: "خط أمامي لكي أرى كيف تخط مثل هذه الخطوط الجميلة"، فليس في مثل هذا الطلب أي ناحية تعجيزية، بل هو تعبير عن الافتتان بفنه الجميل واعتراف به، ولهفة على رؤية دقائق فنه وسعادة كبيرة في تأمل كيفية ظهور لوحة رائعة مرحلة فمرحلة.. أجل، فالسؤال كان حول كيفية الإحياء وليس حول إمكانيته أو عدم إمكانيته.

ثانياً: إنه كما قال سيد قطب رحمه الله:

"إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل.. حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين!.

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية الإيمان.. إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر.. إنه الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هذا هو إيمان إبراهيم

الخليل الذي يقول لربه ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ويتنفس في جوها ويعيش معها.. وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان."[1]

ثم إن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يشبع إيماناً بمستواه هو، فالرجل الأمي قد يتصور أنه ما من أفق آخر غير أفقه المحدود، وليس هناك طريق تتجاوز طريقه.. ألم يزعم محيي الدين بن عربي -في شطحاته- أن خاتم الأنبياء يتلقى الدروس من خاتم الأولياء؟ لماذا؟ ذلك لأن رأسه لمس القبة المضروبة على قدره ومقياسه، وعندما دخل من الباب المقدر له دخوله ضاقت به أطر الباب، بينما كان هذا الباب صغيراً جداً بالنسبة للقصر الكبير.. مثل باب غرفة صغيرة فيه.. بينما كان الباب الذي دخل منه إبراهيم الخليل باب سور كبير وباب مدينة كبيرة.. قبته السماء، يستطيع أن يتطلع فيها إلى الشمس والقمر والنجوم.. فأفق المعرفة لأكبر ولي يبقى محدوداً جداً بالنسبة لأفق المعرفة الذي وهبه الله تعالى لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام، وإذا كان إبريق من الماء يروينا، فإن البحار ما كانت لتكفي لإرواء ظمئه عليه السلام إلى المعرفة، لذلك كان صاحب هذا القلب الكبير كلما رأى دليلاً وآية من آيات ربه ذرف الدموع حباً ووجداً.

سأل شمس الدين التَبْرِيزِي جلال الدين الرومي: أيهما أعظم! هل النبي محمد ﷺ الذي يقول «ما عرفناك حق معرفتك يا معروف!»، أم أبو يزيد البسطامي

---

(١) «**في ظلال القرآن**» لسيد قطب ١/٣٠١-٣٠٢

الذي يقول: "سبحاني ما أعظم شأني!" فأجابه جلال الدين الرومي جواباً مذهلاً إذ قال: "نستطيع أن نعرف من هذين القولين كيف أن سيدنا محمد ﷺ أكبر من البسطامي بما لايقاس، ذلك لأن الرسول ﷺ كان كالبحر المحيط لا يمكن ملؤه، بينما كان البسطامي مثل إبريق ماء امتلأ بسرعة ثم فاض."[1]

كان إبراهيم عليه السلام إنساناً لا يعرف حداً للشبع من المعرفة الإلهية.. كان دائم الطلب "هل من مزيد؟".. أعطني يا رب من معرفتك المزيد.. لذا، ففي حديث يرويه البخاري ومسلم يقول الرسول ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم.»[2] أي بما أننا لا نشك في إحياء الموتى، لذا فمن الأولى عدم وجود الشك عند إبراهيم عليه السلام.

٣. التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام

عند البحث عن عصمة النبي إبراهيم عليه السلام يجدر بنا الإشارة إلى ثلاث أكاذيب أو بالأصح إلى ثلاثة تعريضات له، ذلك لأننا نستعرض هنا عصمة الأنبياء بشكل عام، بينما يُعد الكذب ذنبا كبيراً، لذلك فتفوه الأنبياء بأي كذب يخل بعصمتهم ويخل بالثقة بهم، فالكذب لا يصدر من قلب مؤمن.

يقول رسول الله ﷺ في حديث له: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثا.»[3] ولا تأتي كلمة "يكذب" هنا بمعنى الكذب المعروف بل بمعنى "التعريض". وقد يبدو قولنا

---

(١) «**نفحات الأنس**» لملا جامي ٥٢١ ترجمة لامعي جلبي.

(٢) **البخاري**، الأنبياء ١١؛ **مسلم** الإيمان، ٢٣٨.

(٣) **البخاري**، الأنبياء، ٨، النكاح، ١٢؛ **مسلم**، فضائل، ١٥٤؛ **أبو داود**، الطلاق، ١٦

هذا تكلفاً من الناحية اللغوية، غير أنه صحيح من ناحية المعنى الذي سنوضحه بعد قليل، ذلك لأنه يجب الانتباه جيداً إلى التعبير، إذ لا يمكن إسناد الكذب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام، فلا يأتي الكذب هنا بالمعنى الوارد في قواميس اللغة، نطلق كلمة "التعريض" لأمثال هذه الكلمات.

كان الرسول ﷺ يمزح أحياناً ولا يقول إلا حقاً، فمثلاً كان يمازح أنساً رضي الله عنه فيقول له: «يا ذا الأُذُنين!»،[1] طبعاً كان لأنس رضي الله عنه أذنان. وخاطب امرأة فقال لها: «أأنتِ زوجة الرجل الذي في عينه بياض؟» فقالت: يا رسول الله، ليس في عين زوجي بياض. فقال لها الرسول ﷺ: «في كل عين بياض.» وأتته مرة امرأة فقالت: يا رسول الله، ادع لي أن يدخلني الله الجنة، قال: «يا أم فلان! إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فولت العجوز تبكي فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ (الواقعة: ٣٥-٣٦).»[2]

إن النبي يختار كلماته جيداً حتى وهو يمزح.. أجل، إن المقام الذي كان يشغله الأنبياء لم يكن يبيح لهم الكذب حتى في المزاح، ذلك لأنهم في موقع القدوة والأسوة للإنسانية جمعاء، فإن كذبوا في المزاح كذب الناس في الجد، لذا فلا يمكن أن يكون أي نبي مثالاً سيئا في أي شيء.

كان النبي إبراهيم عليه السلام منذ ولادته حنيفاً وعدواً للأصنام، وقف أمامها

---

(١) **الترمذي**، المناقب، ٤٥؛ **أبو داود**، الأدب، ٨٤

(٢) «**الشمائل**» للترمذي ٢٤١

وعمل ضدها وكافح العكوف على الأصنام حتى قبل بعثته، حتى جاء يوم قرر فيه أن يهدم الأصنام جميعها. كان من عادات قومه النظر إلى النجوم لمعرفة ما سيقع من حوادث، لأنهم كانوا يعتقدون آنذاك أن الآلهة موجودة في السماء بين النجوم، وكانوا يعتقدون أن النجوم تتحكم في مصائر الناس، وكان إبراهيم عليه السلام ينظر أيضاً إلى النجوم ولكن من أجل محاولة إقناع قومه والوصول إلى تحقيق غايته، و لم يكن يفكر طبعاً تفكير قومه في هذا الصدد.

نظر إبراهيم عليه السلام نظرة إلى النجوم فقال "إني سقيم"، هذه هي كذبته الأولى أو بالأصح تعريضه الأول، وسنشرح فيما بعد لم قال هذا. وتعريضه الثاني قاله عندما كسر جميع الأصنام ثم علق مطرقته على عنق كبير الأصنام قائلاً لمن سأله من فعل هذا بأصنامهم: "إنه كبيرهم هذا فاسألوه."

أما الثالث فلا يذكره القرآن ويتعلق بزوجته إذ أوصاها بأن تذكر لمن يسأل عنها أنها أخته.[1]

هذه هي التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام وسنتناولها جميعاً لنرى الوجه الحقيقي لعصمته بعد معرفة ماهية الحوادث.

أ – " **إني سقيم** "

يشرح القرآن الحادثة الأولى فيقول: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ

(١) **البخاري**، تفسير، سورة (١٧) ٥؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٢٦-٣٢٧

تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۞ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (الصافّات: ٨٣-٩٠). كان إبراهيم عليه السلام يقصد من "إني سقيم" الإشارة إلى السبب الرئيسي لعدم شعوره بالراحة، كانت الأصنام مصدر حزنه وسقمه.. شعر بأنه ما لم يهدم هذه الأصنام ويكسرها فلن يجد طعماً للراحة، وعندما قال لمن حوله: "إني سقيم" ظنوه مريضاً من الناحية الجسدية فتولوا عنه، إذ كانوا يصرون على اصطحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني.. ما إن خرجوا من عنده حتى أسرع ليحطم الأصنام مبينا بذلك السبب الحقيقي لسقمه غير أنه استعمل في كلامه معهم تعريضاً يفهمون منه شيئا غير مقصوده الحقيقي، ولكنه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبداً، كل ما هنالك أن قومه لم يفهموا قصده الحقيقي، وليس هذا بغريب عن قومه الذين صموا آذانهم عن الاستماع إلى الحق، كان هذا هو مصدر الخطأ.

كان ما استعمله إبراهيم عليه السلام تعريضاً، ولكنه كان شخصاً مستقيماً إلى درجة أن هذا التعريض الذي استعمله آله إلى درجة أنه سيقول يوم القيامة لمن يأتيه يسأله الشفاعة أن يذهبوا إلى موسى لأنه تذكر كذباته، يقول الرسول ﷺ: «..فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليله من الأرض، اشفَعْ لنا إلى ربك، ويقول: -فذكر كذباته- نفسي نفسي اذهبوا إلى موسى.»[1]

تأملوا كيف أن إبراهيم عليه السلام استعمل تعريضاً مثل "إني سقيم" مرة في حياته وقارنوا بينه وبين أقوال من يرون أنفسهم في خدمة الإسلام -ولا أذكر غيرهم- إن كان ذلك اضطراراً أم لا لكي يتبين لكم مدى براءة أقوال النبي إبراهيم

(١) **البخاري**، تفسير سورة (١٧) ٥؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٢٦-٣٢٧

عليه السلام.. لقد سهل اليوم التذبذب بين الصدق والكذب، لذا يجب الحذر تماماً حتى من تجويز استعمال "التعريض" اليوم، ذلك لزيادة الكذب وفشوه في أيامنا الحالية، ولما كانت هذه هي الحال فيجب الحذر حتى في المواضيع الثلاثة التي أجاز النبي ﷺ الكذب فيها،[1] ذلك لأنه كانت هناك هوة واسعة بين الصدق والكذب في العهد النبوي.. كان الصحابة يمثلون الصدق وكان مسيلمة وأتباعه يمثلون الكذب، كانت هذه هي المسافة الموجودة سابقاً، أما الآن فالوضع مختلف.

أجل، إن الذين يمثلون الحق يجب ألا يعطوا للكذب أي مجال سواء في حياتهم الفردية أم في حياتهم الاجتماعية، فهذا هو الشرط الأول للوصول إلى موضع الثقة والأمن، يجب أن نبتعد نحن عن الكذب ويبتعد عنا الكذب، فإذا كنا نبدي كل هذه الحساسية في هذا الموضوع، إذن، فخمنوا الحساسية التي يبديها الأنبياء عليهم السلام في هذا الخصوص وهم الذين تعلمنا الصدق منهم، خاصة إن كان هذا النبي هو النبي إبراهيم عليه السلام جد نبينا محمد ﷺ.

بـ - **" بل فعله "**

والتعريض الثاني هو: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۞ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُوا أَجِئْتَنَا

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد، ٦/٤٥٤؛ «**كنز العمال**» للهندي ٣/٦٣٢-٦٣٣

فقد ورد في الحديث «لا يصلح الكذب إلا في إحدى ثلاث: الرجل يكذب على امرأته ليصلح خلقها، ورجل يكذب ليصلح بين امرأين مسلمين، ورجل كذب في خديعة حرب فإن الحرب خدعة.»

بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٥١-٦٣).

يُسأل إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبرَاهِيم﴾ فيجيبهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ ويسكت هنا، وفي القرآن الكريم علامة وقف هنا، أي يتم الوقوف هنا في التلاوة، والضمير (ـه) يعود إلى نفسه أي إبراهيم، ولكنه استطاع بمهارة حديثه توجيه أنظارهم إلى الصنم الكبير. والحقيقة أنه نطق هنا بجملتين مختلفتين، ولكن عند التلفظ بهما أصبحتا وكأنهما جملة واحدة، لذا فلم يستطيعوا فهم مراده الحقيقي. فالجملة الأولى هي: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ والثانية هي: ﴿كَبِيرُهُمْ هَـذَا﴾ ولكنه عندما ربط الجملتين أصبحتا وكأنهما جملة واحدة: ﴿بَلْ فَعَلَـهُ كَـبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وهنا يكمن التعريض، ويكمن هنا أيضا استهزاء خفي من الكفر ومن عبادة الأصنام عندما قال: ﴿كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ولكن عقولهم كانت مشبعة بفكرة الأصنام إلى درجة لم يفهموا معها سخريته هذه، فبما أنه أشار إلى الصنم وذكر أنه "كبير"، إذن، كان هذا كافيا بالنسبة إليهم ولا يهمهم بعد ذلك قصده ونيته.. ويل لعبادة الأوثان! ويل للتحجر الفكري! ويل للأذهان الضامرة والصدور المنغلقة دون النور الإلهي!

جـ - " أختي "

لا توجد في الحادثة الثالثة ذرة من الكذب، بل لا يمكن حتى إطلاق كلمة "التعريض" على كلامه، فهو كلام صحيح وصادق تمام الصدق، إذ أوصى زوجته سارة أن تقول للنمروذ ولرجاله إن سألوها "إنني أخته"، ولو سألوا إبراهيم عليه السلام عنها لقال "إنها أختي"، ذلك لأن إبراهيم عليه السلام لو قال إنها زوجته لامتدت أيديهم بالأذى والسوء إليها، ولوقع هو وزوجته في ضيق شديد، وربما اضطرا إلى ترك تلك البلاد والرحيل عنها، غير أن ما قاله إبراهيم عليه السلام مطابق للحقيقة، ذلك لأن جميع المؤمنين إخوة كما يقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، والإيمان هو الرباط الأول الذي يربط الإنسان بالآخرين، وفي غياب وجود هذه العلاقات فإن الذين يولدون من أب واحد وأم واحدة لا يُعدون إخواناً، واختلاف الزمان والمكان لا يكون حائلاً بين أخوة الإيمان، والمؤمنون والمؤمنات إخوة فيما بينهم دون أي تفرقة بين ذكر وأنثى، أما نقاط التقارب الأخرى فتأتي بعد هذه الأخوة، فإن قام مؤمن بتطليق زوجته انقطعت رابطة الزوجية فيما بينهما، ولكن رابطة الإيمان تبقى موجودة. فالنبي إبراهيم عليه السلام أشار إلى هذه العلاقة وإلى هذه الرابطة وقال عن زوجته إنها أخته، وهذه الكلمة تفيد عين الحقيقة حتى أنها لا تُعد تعريضاً، غير أن الذين في أعينهم غشاوة وفي قلوبهم أكنة لن يفقهوا هذا أبداً. ما نستفيده نحن من هذا الموضوع:

١) إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب أبداً.

٢) يجب على الذين يسيرون في طريق الأنبياء وفي أثرهم ألا يكذبوا ولا

يقتربوا من الكذب، والمؤمن الحقيقي يحس بآلام الضمير طوال عمره من منظر حرام تعلق بنظره، أو من كذب جرى على لسانه مرة، بل يذرف الدموع أسفاً وندماً.. وعلى المرشدين -مهما كانت مراتبهم ودرجاتهم- أن يقضوا حياتهم باستقامة ودون انحراف.

٤. استغفاره لأبيه

والآن لنلق نظرة على زلة إبراهيم عليه السلام عندما قام بالاستغفار لأبيه. فلماذا استغفر لأبيه الذي كان على ضلال مبين، ولماذا تضرع لله تعالى أن يغفر لـــه؟ ألم يكن من الأولى لنبي مثله الاكتفاء بالذين آمنوا برسالته؟ ولمـــاذا أصـــر في موضوع والده كل هذا وتضرع إلى الله تعالى أن يغفر له؟ أكان هذا خطأ منه؟ وكيف نستطيع أن نعزو الخطأ إلى نبي معصوم؟ وإذا أخطأ هنا فما الضمان أنه لم يخطئ في مواضيع أخرى؟ وكيف نعرف ذلك؟ أنستطيع بعد معرفة ذلك من اتباعهم بقلوب مطمئنة؟

هذا هو أساس الشبه التي أوردها الملاحدة السابقون ويورده اليوم بعـــض أصحاب الشكوك والشبه من المتظاهرين بالمعاصرة. قـــال إبـــراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿واغفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء: ٨٦). ويـــشرح القـــرآن الكريم السبب الذي دَعَا إبراهيم إلى هذا الدعاء: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْـــرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْـــرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤).

كما يشرح القرآن كيف وعد إبراهيم أباه فيقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن

دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤).

هنا دلالة واضحة جداً على وجود عداوة أبدية بين الكفر والإيمان، ففي روح الكفر هناك بغضاء نحو الإيمان كطبيعة في الكفر لا يمكنه الفكاك منه، لذا تكمن هنا عداوة الكافر للمسلم واستحالة محبته.

يبين القرآن الكريم ضلال أبي إبراهيم عليه السلام، وهذا الضلال لم يكن ليشكل نقيصة في حق إبراهيم عليه السلام، إذ يمكن القول بوجود أناس لم يصلوا إلى نور التوحيد من بين أجداد رسول الله ﷺ كذلك، ولا يدري أحد ماذا كان موقف عبد المطلب أو هاشم أو لُؤَيّ من عقيدة التوحيد، ولكننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان أنهم عاشوا في عهد "الفترة" وأنهم سيعاملون على هذا الأساس، ومع ذلك فإن احتمال وجود أي قصور فيهم لا يمكن أن يشكل مانعاً من تكليف رسولنا ﷺ بالرسالة الإلهية إلى البشرية.

أولاً: ليكن معلوماً أن كان آزر أبا لإبراهيم عليه السلام وكان إبراهيم عليه السلام يقول إنه على ضلال مبين، فلا يقدح هذا في نبوته، فالله تعالى يخلق أحياناً من آزر أمثال إبراهيم عليه السلام ومن نوح عليه السلام أمثال كنعان.. أجل، فمن أناس مثل الشياطين سوءاً قد يأتي أشخاص كالملائكة صفاء ونقاء.. والعكس وارد أيضاً، فالله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فقدرته تسع كل شيء وليس من حد أحد محاسبته.. أجل، لقد خلق من شخص ميت مثل آزر شخصاً حياً مثل إبراهيم عليه السلام –الذي كان ينفخ الحياة في الناس– ويجعله أبا لسلسلتين ذهبيتين، فابنان من

أبنائه من الأنبياء. فبينما وقفت سلسلة ذرية ابنه إسحاق عليه السلام عند النبي عيسى عليه السلام استمرت سلسلة إسماعيل عليه السلام حتى رسولنا الكريم ﷺ.

ثانياً: إن دعاء إبراهيم عليه السلام لأبيه شيء إنساني وفطري تماماً، لذا نرى نبينا وهو يدعو عمه أبا طالب إلى كلمة التوحيد ويتلهف لهدايته، وبعد أن مات عمه قال الرسول ﷺ: «أما والله لأستغفرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك»[1] علماً بأن عمه عاونه مدة أربعين عاماً وتحمل معه جميع المشاق والصعاب حتى أنه لم يتركه وحيداً عندما أعلنت قريش مقاطعة المسلمين.. فكما كان من الطبيعي ومن الفطري تلهف الرسول ﷺ على هداية عمه الذي حماه طوال حياته وآزره، كذلك كان من الطبيعي قيام إبراهيم عليه السلام بالاستغفار لأبيه، ذلك لأن والده هو سبب وجوده والذي قام بتنشئته، ثم إن الدين يأمر ألا يقول الابن لوالديه –مهما كانت عقيدتهما– كلمة "أف".[2]

ثالثاً: التبليغ هو غاية وجود الأنبياء، ولكنهم لا يملكون الهداية. مهمتهم تبليغ الحق والحقيقة على الدوام واستعمال كل وسيلة مشروعة في هذا الصدد. لذا، كان إبراهيم عليه السلام يبذل جهده لتليين قلب والده تهيئة له لقبول الهداية، لذا فالمحتمل أن وعده بالاستغفار له كان من أجل هذه الغاية، ذلك لأن الدعاء وسيلة من وسائل الهداية وليس من الصحيح الوقوع في اليأس من هداية أي شخص.

---

(١) **البخاري**، الجنائز، ٨١، مناقب الأنصار، ٤٠؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٩؛ **النسائي**، الجنائز، ١٠٢

(٢) قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعبُدوا إلاَّ إيَّاهُ وَبالْوَالدَين إحسَاناً إمَّا يَبلُغَنَّ عنْدَكَ الْكبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلاَ تَنهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَولاً كَرِيماً﴾ (الإسراء: ٢٣).

يجب ألا يكون هناك يأس لأنه مع أن الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦) صريحة أن بعض الكفار لن يستطيعوا الوصول إلى الهداية فإن نبينا ﷺ كرر محاولاته مع كفار عنيدين أمثال أبي جهل وأبي لهب وابن أبي مُعيط ودعاهم مرة بعد مرة إلى الهداية.. إذن، فالهداية في يد الرحمن وكان إبراهيم عليه السلام يؤمن بهذا، لذا جرب كل وسيلة مع والده حتى وسيلة الدعاء.. أجل، هذا هو سبب دعائه وتضرعه لله تعالى من أجل والده، إذ كان إيمانه بالله تعالى في مرتبة الاطمئنان، لكنه ما إن عرف المشيئة الإلهية حتى تخلى حالاً عن دعائه وفوض الأمر كله لله تعالى.

ثم إن إبراهيم عليه السلام أتى في السبيل الممتد حتى رسولنا ﷺ وكلف بحمل رسالة النبوة. كانت وظيفته هي القيام بتبليغ قومه جميعاً، و لم يكن هناك أي سبب يدعوه لاستثناء أبيه، فإذا أضفت إلى هذا الميل الفطري رأيت أن كونه ابناً ونبياً في الوقت نفسه كان يدفعه إلى الإصرار على محاولة هداية أبيه، وعندما نقرأ القرآن الكريم نلمس مدى لهفة إبراهيم عليه السلام ورغبته في هداية والده وعدم اهتمامه بالخشونة التي يواجهها من قبله أن يخاطبه على الدوام بقلب متوله: "يا أبت.. يا أبت..":

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ۞ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ۞ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾ (مريم: ٤١-٤٥).

أجل، كان إبراهيم عليه السلام يقدم لأبيه رسالته النورانية مثلما يقدمها للناس أجمعين، وهل هناك ابن لا يود من أعماق قلبه هداية أبيه إلى الحق ولا يسعى إلى ذلك بكل جهده، لاسيما إن كان شخصاً مثل إبراهيم عليه السلام الحليم.. الأواه.. المنيب؟

رابعاً: يرى بعض المفسرين أن كلمة "أب" تأتي في اللغة العربية بمعنى "الجَدّ" و"السلف"، لذا يقولون إن هناك احتمالاً بأن الذي خاطبه إبراهيم عليه السلام بـ"يا أبت" ليس أباه، بل هو جده أو عمه أو قريب آخر من أقربائه،[1] وقد أتى جمع كلمة "أب" وهي "آباء" بمعنى "الأجداد" و"الأسلاف"، فمثلاً قول يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعتُ مِلَّةَ آبَائِي إبرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعقُوبَ﴾ (يوسف: ٣٨)، فكلمة "آبائي" تأتي هنا بمعنى "أجدادي"، كما أن تعبير "آبائنا الأولين" يرد كثيراً في القرآن الكريم. فإذا كان هذا هو الأمر فيجوز أن إبراهيم عليه السلام لم يكن ابن آزر بل حفيده أو ابن أخيه حتى أن هناك رواية بأنه كان ابن تارح[2] وقد يكون ابن شخص آخر. فإذا كانت الاحتمالات واسعة بهذا الشكل، علمنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن بالشخص الذي يستغفر لأبيه بعد أن تبين له ضلاله، والقرآن الكريم ينقل لنا دعاء آخر له: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم: ٤١).

فإذا تطلعنا إلى الموضوع من هذه الزوايا نرى بوضوح مدى طهارة ونزاهة

---

(١) «**مفاتيح الغيب**» لفخر الدين الرازي ٣٧/١٣-٤٠؛ «**روح المعاني**» للآلوسي ٩٦/١٦

(٢) «**مفاتيح الغيب**» لفخر الدين الرازي ٣٧/١٣-٤٠؛ «**تفسير البيضاوي**» للبيضاوي ٣٠٧/١-٣٠٨؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٦٣/١٠-١٦٤

ونقاوة إبراهيم عليه السلام ومدى معصوميته وعدم اقترابه من اقتراف أي ذنب ومدى عظمته كنبي.. لقد نطق بالحق على الدوام، وكان بجانب الحق دائما.

كان إبراهيم عليه السلام إنسان التوحيد، ورمزاً للتسليم المطلق ﷺ، لذا أهديت أليه صفة "الخلّة"، والآية: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إبرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: ١٢٥) تشير إلى هذه الخلة، فلم ينحرف قيد شعرة عن أي أمر من أوامر الله تعالى، فلما قيل له اذبح ابنك، لم يتردد في ذلك لحظة واحدة،[1] وعندما أمر أن يصطحب زوجته وابنه ثم يتركهما وسط صحراء موحشة لم يتردد في تنفيذ هذا الأمر، تركهما في الصحراء وانصرف دون أن يلتفت ويلقي نظرة وراءه،[2] وفي مرة أخرى امتحن بحياته وبنفسه، إذ ألقي داخل نار جهنمية، ولكنه لم يقلق و لم يضطرب أقل اضطراب. ويروى أن ملكاً أدرك إبراهيم عليه السلام وهو يهوي إلى النار المتأججة فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا. فقال الملك: ادع الله إذن. فقال: عليم بحالي غنيّ عن سؤالي. لذا كان جزاء مثل هذا

(١) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَء الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ۞ سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۞ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافّات: ١٠٢-١١١).

(٢) انظر هذه الآية: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيرِ ذِي زَرعٍ عِندَ بَيتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهوِي إِلَيهِم وَارزُقهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧)؛ وانظر أيضا: **البخاري**، الأنبياء، ٩

الاستسلام المطلق أن الله تعالى جعل تلك النار برداً وسلاماً عليه.[1]

إذن، فإبراهيم عليه السلام كان نبياً بهذا المستوى، وكانت علاقته بربه هذه العلاقة الرفيعة، لذا فالتفكير باحتمال اقترافه أي ذنب ليس إلا عدم معرفة هذا النبي الكريم على حقيقته وجهل به.

أجل، لقد كان أنموذجاً للرحمة وللشفقة، وانطلاقاً من رحمته الواسعة وشفقته العميقة أراد هداية أبيه، ولكنه عندما عرف الماهية الحقيقية لوالده تبرأ منه، وفي رواية أن الله تعالى سيقلب والده يوم القيامة إلى ذيخ[2] ملتطخ، وعندما ينظر إبراهيم عليه السلام إلى هذا المنظر يتخلص من علاقته الفطرية بوالده،[3] والله أعلم.

د- **يوسف عليه السلام رمز العفة**

التوراة مملوءة بالافتراءات على يوسف عليه السلام، فلم يبق هناك افتراء إلا وألصقوه به، حتى نزلوا به إلى مرتبة إنسان عادي، بينما كان نبياً طاهر السيرة والصورة، وكان -ككل الأنبياء الآخرين- مزيناً بزينة العصمة.

غير أن علينا أن نعترف بكل أسى بأن بعض المفسرين تأثروا بالتوراة أو بمعنى أعم بالإسرائيليات، واقتبسوا منها فأسندوا إليه مالا يصح الإسناد إلى نبي معصوم.

---

(١) انظر هذه الآية: ﴿قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَرداً وَسَلَاماً عَلَى إبرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩)؛ «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ١١/٢٠٠-٢٠١؛ «**الدر المنثور**» للسيوطي ٤/٣٢٢

(٢) **ذيخ**: هو ذكر الضبع الكثير الشعر. **ملتطخ**: متلوث بالدم ونحوه.

(٣) **البخاري**، الأنبياء، ٨

أما نحن فسنتناول عصمة يوسف عليه السلام -مثلما تناولنا الأنبياء الآخرين- من الآيات القرآنية، وعلى ضوئها سنحاول أن نصل إلى عصمته، وليست محاولتنا هذه سوى إظهار ما هو موجود فعلاً في الآيات بشكل واضح، فأي شخص عادي يستطيع فهم هذا من قراءته لسورة يوسف بشرط أن يدرك معاني الآيات، ويكفي هنا ألا ينظر إلى هذا الموضوع بفكرة مسبقة لديه.

ألقي النبي يوسف عليه السلام في البئر من قبل إخوته، ثم بيع عبداً حيث اشتراه وزير في مصر واعتنى به ورباه في بيته كابنه، ولكن عندما أصبح شاباً بدأت زوجة الوزير تحمل تجاهه مشاعر خاصة، وأخيراً غلقت الأبواب في يوم من الأيام -كما يذكر القرآن- وأرادت وصاله.. ارتجف يوسف عليه السلام من هذا الطلب الذي لم يخطر بباله في يوم من الأيام، فأسرع يهرب منها، ولكنها وصلت إليه وقدّت قميصه من الخلف، وما أن انفتح الباب حتى رأيا سيدهما هناك، وهنا امتحن يوسف عليه السلام امتحاناً آخر، إذ لجأت الزوجة إلى الافتراء عليه وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَن أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً﴾ (يوسف: ٢٥).

والآن لننقل ما جاء في هذا الخصوص في القرآن الكريم: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣).

أولاً: لا يغتاب القرآن، إذ لا يذكر اسم المرأة، بل يذكر فقط أنها ربة ذلك البيت. والمرأة هي التي قامت بغلق الأبواب، وكانت الدعوة -بكل ما تحمل من إغراء وفتنة- صادرة منها، فيأتي الجواب من رمز العفة: "معاذ الله"،

فيكون يوسف عليه السلام بذلك رمزاً للعفة أمام جميع الشباب حتى يوم القيامة وقدوة لهم.

والآية صريحة تماماً في بيان الرد القاطع الذي رد به يوسف عليه السلام. فمن كان المقصود عندما قال يوسف عليه السلام ﴿إِنَّهُ رَبِّي...﴾ إما أنه كان يقصد الله تعالى ويرى في اقتراف الإثم جحوداً لكل النعم التي أسبغها الله تعالى عليه، إذ لا يمكن أن يصل الجاحدون إلى الفلاح أبداً، وإما أن يكون المقصود هو زوج المرأة تلميحاً إلى قوله لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، فهذا الزوج أحسن كثيراً إلى يوسف عليه السلام فكيف يمكن له أن يقابل كل هذا الإحسان بالجحود والعقوق؟

هنا توجد نقطة مهمة يجب الالتفات إليها، إذ أن هروب يوسف عليه السلام من الإثم لم يكن بسبب النعم التي أسبغها الله تعالى أو إكرام زوج المرأة مثواه.. فهذه تشكل إحدى أسس المسألة فقط، وتقريب للموضوع إلى مستوى عقلية تلك المرأة ومستوى فهمها، إذ أن سبب ابتعاده عن الإثم يختبئ تحت الجملة الأولى التي نطق بها وهي "معاذ الله" أي ألتجئ إلى الله.. أي أن سبب تهربه من الإثم يعود إلى خشيته من الله تعالى، وهذه هي التقوى المقبولة.

ثم إن يوسف عليه السلام كان على علم بالنتيجة التي سيولدها الإثم.. فالإثم ظلم وتجاوز للحد ودخول إلى دائرة مفرغة وفاسدة، والنتيجة هي الخسران في الدنيا وفي الآخرة.

والآية التي أدت إلى سوء فهم موقف يوسف عليه السلام هي الآية التي أتت بعد تلك الآية مباشرة، وهي: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَولاَ أَنْ رَأَى بُرهَانَ رَبِّهِ﴾

(يوسف: ٢٤). وقبل تفسير الآية علينا أن نقف عند معاني بعض الكلمات فيها. الكلمة التي أدت إلى سوء الفهم هي كلمة "همّ".

هذه الكلمة فعل ماض ولها معان عديدة، حيث يُختار المعنى الأنسب بالنسبة لموقف الفاعل، وهنا قاعدة في علم اللغة تقول بوجوب اختيار المعنى الأساسي والحقيقي للكلمة إن لم يكن هناك دليل مناقض لهذا المعنى، ولم يكن هناك تناقض مع الموضوع المنوه عنه، أي يُختار المعنى الأول للكلمة. والمعنى الأول الذي يعطيه علماء اللغة –مع وجود بعض الفروق الإقليمية– لهذه الكلمة هو: قَلِق وحزن، ومصدره الهَمّ، ومعنى قَلِق أو أقلق هو الوقوع في اضطراب قلبي، وفي الغم وفي الحزن الشديد. فإن نسبنا هذا الفعل إلى زليخا لكان معنى "همت" أنها حزنت من جرّاء يوسف عليه السلام وقلقت بِصَدِّهِ وداخلها حزن كبير بسببه.

ثم إن يوسف عليه السلام قلق وحزن واغتم أيضاً، ذلك لأنه كان بمثابة أسير في ذلك البيت، فلو هرب منه لقبض عليه وأعيد إلى البيت، ثم إن هذه المرأة أصبحت مسلطة عليه، إذن، فكما كان يوسف عليه السلام مصدر حزن لها لأنها كانت تشتعل غراماً به، فإنه كان قلقاً ومغتماً باسم عفته وعصمته. ولم يزل قلقه حتى رأى برهان ربه وعلم أنه في حفظ الله تعالى ورعايته وأنه لن يسمح لأحد أن يلوثه، لأن الله جعله في حرز حريز بكل البراهين التي أحاطه بها. ولكنه حتى حصول هذا العلم وهذا اليقين عنده فقد قضى أوقاتاً عصيبة.. ويجب إعادة النظر في التفاسير من هذه الزاوية.

ثانياً: كانت زليخا قد عقدت عزمها ورسمت هدفها.. يجب أن يكون يوسف عليه السلام لها.. كانت غايتها هي هذه.. وهناك آية أخرى تشرح وضعها: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾ (يوسف: ٣٠) أما موقف يوسف عليه السلام فهو: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)، وكلمة "المُخلَصين" في الآية كلمة مهمة جداً.. هناك "المخْلِص" و"المُخْلَص".. ويوسف عليه السلام من المُخْلَصين.. فكل نبي يكون مُخلَصاً.

المُخْلِص هو صاحب الإخلاص، أي هو الذي يعمل كل شيء في سبيل الله تعالى وفي سبيل نيل رضاه وحده، ولكن يوسف عليه السلام كان آنذاك في مرحلة البحث ولا يزال في الطريق، أو بالتعبير الصوفي لا يزال في مرتبة "السير إلى الله"، وعندما يسير إلى الله يدخل في نضال للمحافظة بعمله وبتصرفاته وبسلوكه على استقامة السير وعدم الانحراف عن الوجهة الصحيحة.

أما "المُخلَص" فهو الشخص السامق القامة الذي تخلص نهائياً من أي قلق وتربع على ذروة الإخلاص، فقد أتم قطع الطريق الذي يسلكه "المخلِص" من زمان، وهو الآن في مرتبة "السير من الله".. مثل هذا الشخص تخلص نهائياً من الزلل والورطات التي يقع فيها أمثالنا.. ويوسف عليه السلام من هذا النوع ومن هذه المرتبة. إذن، فكيف يمكن إسناد تصرف أو سلوك إلى يوسف عليه السلام المُخْلَص مع أن هذا التصرف لايليق حتى بالمُخْلِص؟!

جاء في سورة يوسف أن النبي يوسف عليه السلام -بطل هذه السورة- من أهل الإحسان في خمسة مواضع، وهذا يعني أن الأرض والسماء.. الصديق والعدو..

الخالق والمخلوق.. الكل يشهد على يقينه وعلى قيامه بمحاسبة نفسه ومراقبتها.

عندما بلغ يوسف عليه السلام أشده ورشده أشار الله تعالى إلى صفة الإحسان وعمق شعوره عنده فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٢٢). وفي السجن عندما اكتشف الجميع -الشقي منهم والسعيد- عمق أفق تفكيره وطهره وعلمه اللدني قبلوه مرجعا لهم، فأقبلوا عليه مؤمنين به وبكلامه عارضين عليه مشاكلهم: ﴿نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٣٦).

خرج بنجاح من كل امتحان دخله. لذا، يمدح الله تعالى رمز الرجولة هذا الذي استطاع التربع على عرش قلوب الأصدقاء والأعداء على السواء، ولم يستطع أي شيء تغيير سلوكه وتصرفه تجاه الدنيا وزينتها: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٦). وهكذا يبشره ربه ويقدم له ضمانا إلهيا.

وعندما جاء اليوم الذي استطاع فيه إخوته -الذين كان الحسد قد ملأ قلوبهم حتى آنذاك- التخلص من جو الحسد المحيط بهم قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٧٨).

وأخيرا عندما وصل يوسف عليه السلام إلى ذروة النضوج والاطمئنان أشار إلى نعم الله تعالى عليه وفضله فقال: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٠). أجل، مثل هذا الإنسان الذي حاز على حسن شهادة الجميع لا يمكن -حسب السنن الإليهية- أن يكون معرضا للانحراف، ولا للتذبذب بين الهبوط والسمو ولا للحرمان.

نعم يعده الله تعالى من المحسنين. وبينما نصل نحن إلى العمل عن طريق الإيمان، وعن طريق العمل إلى الإيمان الحقيقي، وفي نهاية الطريق نستطيع الوصول إلى مرتبة الإحسان.. هذه المرتبة التي تعد آخر مرتبة نصل إليها نرى أن هذه المرتبة هي المرتبة الأولى التي يخطو منها الأنبياء، أي هي خطوتهم الأولى في طريق سيرهم.

والإحسان الذي يشرحه الرسول ﷺ: «الإحسان أن تَعْبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»[1] هذه المرتبة التي تعد آخر مرتبة لنا هي المرحلة الأولى للأنبياء، لذا يجب النظر في الأمور من هذه الزاوية وتقييم الأمور على ضوئها، ولكن إن قمنا بقياس الأنبياء مع أنفسنا وقعنا في أخطاء عديدة و لم نصل إلى الحقيقة.

كانت زليخا ويوسف عليهما السلام ينتسبان إلى عالمين مختلفين تمام الاختلاف.. أحدهما قد غلب عليه الغرام والهيام، قد شلت إرادته فلا تري عينه شيئا آخر.. إنسان يعيش عالم أحاسيسه ومشاعره.. بينما الإنسان الآخر إنسان يرنو ببصره إلى عالم آخر.. نبي مُحسن مُخلص.. إنسان قد فرد جناحيه ليطير في عالم آخر.

لكلا هذين الإنسانين تم استعمال كلمة "همّ".. ولكن معنى هذه الكلمة يختلف باختلافهما وباختلاف هدف وغاية كل منهما. أجل، ينبغي إعطاء معنى مختلف باختلاف مستواهما من ناحية الروح والثقافة والعلم.

ثم إن الاختلاف الموجود بينهما سيظهر إلى السطح من اللوحة التي ستتبين

---

(١) **البخاري**، الإيمان، ٣٧؛ **مسلم**، الإيمان، ٥,١؛ **الترمذي**، الإيمان، ٤

بعد قليل.. يوسف يسرع نحو العفة والطهارة، وزليخا نحو الشهوة والإثم. كانا يتسابقان.. يوسف يهرب وهي تلاحقه، ولو كان لدى يوسف عليه السلام أي ميل للإثم لما كانت هناك مثل هذه المطاردة.. إذن، كان هدف يوسف عليه السلام وغايته شيئا آخر.. كان متوجهاً نحو غاية سامية.. وعندما أمسكت زليخا بقميصه تريد منعه من الخروج من الغرفة تمزق قميص يوسف عليه السلام من الخلف، ولكنه استطاع فتح الباب والخروج من الغرفة والمرأة في أثره، وهنا وجدا الوزير أمامهما، فلم تجد المرأة التي فوجئت بهذا سوى الدفاع عن نفسها والافتراء بأن يوسف عليه السلام كان يحاول الاعتداء عليها، ولكن زوجها لم يَمِل إلى كلامها لوجود شاهد صامت هناك، هذا الشاهد مع صمته كان باستطاعته إفحام أبلغ البلغاء، وهو الثوب الممزق ليوسف عليه السلام.. كان الوضع واضحاً لقريب من أقربائها الموجود هناك، بل واضحاً حتى لطفل صغير.. لقد وضح الأمر، فيوسف عليه السلام بريء لأن قميصه كان مقدوداً من خلف، ولو كانت المحاولة من قبله وقاومت المرأة لكان من المفروض أن يُقَدَّ قميصه من أمام.. كان هذا أحد البراهين التي رآها يوسف عليه السلام من ربه الذي حفظه بهذا القميص المشقوق، ومهد له السبيل للمستقبل المشرق الرائع.

أي كان "همّ" يوسف عليه السلام متجهاً لحبيبه، و"همّ" زليخا متجهاً لحبيبها.. لذا، تورط كثير من المفسرين في خطأ كبير عندما لم يميزوا الفرق الكبير بين "همّ" نبي كريم يعيش تحت رقابة دائمة لله تعالى، وبين "همّ" امرأة أعمت الشهوة عينيها، ووضعوا كليهما في كفة واحدة وكأن تفكير كليهما كان محاطاً بستار كثيف من الشهوة الجسدية، وأنا أرى ضرورة إعادة النظر في جميع

التفاسير والشروح والتعليقات غير المستندة إلى الكتاب والسنة، ومثل هذا التصحيح سيُرضى حتى أولئك المفسرين حسنى النية الذين كانوا ضحية للإسرائيليات، فمن يدري كم من فيوضات حرموا منها بسبب أخطائهم هذه.

أجل، إننا موقنون بأن الذين يقيمون الأنبياء وكأنهم أشخاص عاديون سيحرمون من جوهم المعنوي ومن أنفاسهم النافثة للحياة.

أما ما قيل بأن يوسف عليه السلام مال إلى دعوة زليخا وهم باقتراف الإثم إلا أنه رأى أباه يعقوب عليه السلام وهو يعض على إصبعه محذراً يوسف فهو سفسطة وأسطورة وقصة مختلقة ومن قصص الإسرائيليات الموجودة في الكتب المحرفة ويجب طرح مثل هذه القصص المختلقة من كتبنا.

يقول الوليّ الكبير "عبد العزيز الدبّاغ" في شرح آية ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ بأن زليخا همت لتحقيق غايتها، وهمّ يوسف عليه السلام بمنعها، ربما بضرب زليخا ورفع يده عليها،[1] ولهذا الولي كثير من الالتفاتات الرائعة والدرر النفيسة الأخرى.

ثم كيف يمكن تصور شيء آخر لمن قال الرسول ﷺ في حقه: «إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله.»[2] جده الكبير هو إبراهيم عليه السلام وجده إسحاق عليه السلام ووالده هو يعقوب عليه السلام.. إذن، فهذا هو يوسف عليه السلام الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم.

---

(١) «**الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ**» للسيد أحمد بن المبارك ص٢٦٢

(٢) **البخاري**، الأنبياء، ١٩، المناقب، ١٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٩٦/٢، ٣٣١

فالرسول ﷺ أشار إلى المرتبة التي يشغلها يوسف عليه السلام وهي مرتبة لا يبلغها حتى خيالنا. وبينما لا يخطر على بالنا -نحن الأشخاص العاديين- مثل هذا الإثم الكبير، كيف يمكن لنبي طاهر وسليل نبوة طاهرة أن ينزل إلى مثل هذا المستوى؟ هذا شيء لا يتصوره العقل ولا المنطق.

وعندما زادت فتن النساء وألاعيبهن تجاه هذا النبي التجأ إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)، أي رضي بعفونة السجن وظلمته وحياته القاسية وفضّلها على حياته في ذلك القصر الفخم والأثاث الفاخر. إذن، ألا يكفي قضاؤه ما يقارب التسع سنوات في عذاب السجن ومحنته في سبيل المحافظة على عفته وطهارته دليلاً على عصمته؟ هؤلاء النسوة اللاتي فتن به وقطعن أيديهن أمام حسنه الباهر.. هؤلاء النسوة اللاتي حاولن إحراج موقفه بنشرهن خبر تعلق زليخا به وعشقها له، كما طرقن أبواب حيل أخرى للتقرب إليه.. غير أنهن وجدن كل مرة أمامهن هذا الشاب المؤمن الذي قُدت إرادته من الجرانيت، و لم يستطعن الحصول منه على أي شيء.

التجأ إلى ربه وسأله الحماية، فاستجاب له ربه وحفظه منهن ومن كيدهن داخل جدران السجن الآمن، وأصبح السجن منذ ذلك الوقت يستقبل الدعاة إلى الله وإلى القرآن.. أي أصبح "مدرسة يوسفية".

كان حرصه على عفته شديداً إلى درجة أنه عندما جاء وقت إطلاق سراحه من السجن رفض الخروج حتى يتثبتوا تماماً من عفته، وحتى يقوم الدليل القاطع على طهارته، ذلك لأن العيش طاهراً ونقياً شيء، وإثبات ذلك الطهر

والنقاء شيء آخر، لأن ذلك كان ضروريا لمهمته في المستقبل.. رفض الخروج من السجن حتى قامت زليخا بالاعتراف على الملأ وأقرت كيف كان أنموذجاً للعفة. إذن، فماذا نقول لمن يريد إسناد اقتراف الذنب لهذا النبي الكريم حتى بعد قيام زليخا بالاعتراف بذنبها؟

الفصل الثالث:

عصمة رسولنا ﷺ

كل الأنبياء معصومون، أما سيد الأنبياء فهو أسمى حتى من العصمة.. ذلك لأنه كان سلطان الأنبياء وغاية الخلق، وأحب الخلق لله تعالى.. لقد أرسل كل نبي لفترة من الزمن ولمكان معين، بينما أرسل للناس كافة حتى قيام الساعة.. كانت هناك حاجة لقافية شعر الأنبياء، فجعل الله تعالى أحب مخلوقاته قافية هذا الشعر وجعله بلبلاً غريداً في سماء النبوة.(١)

أجل، لم يشرح أي نبي مثله معنى الوجود شرحاً جامعاً وعاماً وكلياً، لأن ذلك لم يكن من مهمتهم، لأن العلوم لم تكن قد تقدمت في أزمانهم و لم يَغُصْ أحد في الوجود كغوصه.. كان ذلك مقدّرا لعصر الرسول ﷺ وللعصور التي ستأتي فيما بعد، فلم يحدث أي تناقض بين ما قاله وبين العلم الصحيح والاستكشافات العلمية.

كان كل نبي نجماً مضيئاً، ولكن رسول الله ﷺ كان شمساً ساطعة اختفت أضواء جميع النجوم أمام ضيائها، وما أجمل ما قاله البوصيري عنه:

فإنه شمس فضل هم كواكبها يُظهرن أنوارها للناس في الظُلَمِ

(١) **البخاري**، التيمم، ١؛ **مسلم**، المساجد، ٣

لذا، فهو أمير المعصومين وملكهم.. فاقت عصمته عصمتهم وعفته عفتهم. لم يجد ألد أعدائه ما يقولونه من طعن حقيقي في حقه، قال عنه خصومه بأنه "مجنون".. ولو قالوا عنه إنه متوله بحب الله.. ذائب في وجده لصدقوا.

قالوا عنه إنه ساحر.. ذلك لأن الإنسان -مهما كان عنيداً- كان يذوب في حضرته ويحس أن جيمع ركائز كفره وأسسه تهتز وتتقوض.. كم من شخص أُخذ بسحر بيانه فبذل في سبيله كل ما يملك، فكان تفسير هذه الظاهرة من قبل الكفار الذين طُمِس على قلوبهم "لا شك أنه ساحر".. كانوا غافلين عن قدرة الإيمان وقوته وعن تجلي الكمال وجاذبية الجمال.

قالوا إنه "كاهن" إذ رأوه وهو يخبر أخبار المستقبل حتى يوم القيامة، إذ لم يكونوا قد سمعوا مثل هذه الأقوال إلا من الكهان، ولكنهم لو دققوا قليلاً لاستطاعوا تمييز كلامه الصادق عن أكاذيب الكهنة.[1]

لو كان -حاشاه- مجنوناً لما كان على سطح هذه الدنيا عاقل واحد، أما السحر والكهانة وغيرهما من الأمور البعيدة عن الجدية كانت أبعد شيء عنه، ولا تُرى حتى في أحلامه وحتى أحلامه كانت جدية بقدر حياته الحقيقية، إذ أن أخبار الغيب التي كانت تهب عليه من العالم الآخر كانت تشكل بعض جوانب رسالته.[2]

---

(١) لتقصي الأوصاف التي أطلقها المشركون على النبي ﷺ انظر إلى «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٨٩/١-٢٩٠؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٧٨/٣

(٢) **البخاري**، التعبير، ٣-٤؛ **مسلم**، الرؤيا، ٦-٩؛ **أبو داود**، الأدب، ٨٨؛ **الترمذي**، الرؤيا، ١

أجل، لقد قالوا كل هذه الأقوال المتعارضة مع العقل ومع المنطق في حقه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً حول عصمته وحول عفته و لم يتجاسروا على ذلك.، ذلك لأن أي كلام من هذا النوع كان يجعل صاحبه في وضع مخجل وفي وضع صعب، الأصدقاء والأعداء كانوا يعرفون هذا جيداً.

قام الآلاف من الناس والآلاف من الكتب بالحديث عنه.. كان فيهم مثل الفراشات التي تطير نحو النور وتطوف حوله، وفيهم من يشبه الخفافيش التي ترتعب من ضوء النهار، ولكن مع اختلاف هؤلاء في نظراتهم ومبادئهم وأديانهم فقد اتفقوا في شيء واحد، وهو إجماعهم على عفته وعصمته.

ونُعدّ نحن أيضاً -في معنى من المعاني- من الذين يطوفون حول هذا النور، وما كلامنا الدائم عن عفته وعصمته إلا لأداء دَيْن قول الحق والحقيقة حوله، ولكن علينا أن نعترف للذين يقرأون هذه الأسطر بألا يكتفوا بكلامي عن عفته وعن عصمته ﷺ، بل عليهم الرجوع إلى كتب السلف لكي تكون هذه الكتب والقلوب الصافية لمؤلفيها مرشدة لهم.. هذه القلوب التي رأت دائماً الحق تعالى عنده، ولا غرابة في هذا، فرسول الحق تعالى لا يُعرف حق المعرفة إلا عند أمثال هذه القلوب.

أ- التنبيهات الواردة في حقه في القرآن

هناك بعض التنبيهات الموجهة مباشرة إلى رسولنا ﷺ في القرآن الكريم. وهذه التنبيهات قد تبدو في الظاهر وكأنها تمس عصمته، فقد يقول بعضهم: أيكون هناك تنبيه دون وجود خطأ؟ ولكننا نقول بإصرار -كما قلنا من قبل-

بأن هذه التنبيهات لم تكن نتيجة اقتراف خطأ أو ذنب، بل ربما لقيامه – باجتهاد منه– باختيار الحسن مع وجود الأحسن، فمثله الذي هو رمز الجمال والحسن لا يجوز له إلا اختيار "الأجمل" و"الأحسن"، وليس "الجميل" و"الحسن".

وهذا يشبه قيامنا بشرب ماء نقي مع وجود ماء نبع أكثر نقاءً وصفاءً. أجل، يجوز تنبيه الأنبياء إن قاموا بشرب ماء زمزم مع وجود ماء الكوثر. وبينما نتعرض نحن لعتاب إن زلت قدمنا ووقعنا في هاوية الجحيم، يتعرض الأنبياء للعتاب وهم يسبحون في السماء إن غيروا مكانهم بعض التغيير. لذا، فلا يجوز أبداً تناول الأنبياء بمقاييسنا الدنيوية، وإطلاق الأحكام بحقهم من هذه الزاوية. هؤلاء الذين دعوا للقصر وشرفوا بالمثول في حضور السلطان كيف يمكن مساواتهم مع الذين بقوا خارج القصر و لم يستطيعوا حتى الاقتراب من الباب الخارجي لحديقته، وكيف يمكن وزنهم بالميزان نفسه؟ تبسم الموجودين خارج القصر يعد صدقة، ولكن تبسم الماثلين في الحضور السلطاني قد يعد إساءة.. الموازين مختلفة تماماً.. لذا، يجب تقييم التنبيهات الواردة في القرآن الكريم للنبي ﷺ من هذه الزاوية.

ما هي هذه التنبيهات؟ ولماذا خوطب النبي ﷺ بها؟ لنلقِ نظرة على أمثال هذه المخاطبات للرسول ﷺ والتي تبدو وكأنها تنبيه له لنجد المدح الخفي له في طياتها، والثواب في العمل الذي يبدو وكأنه ذنب لكي نوقن أنه لم يكن له مثيل ولا شبيه في العفة وفي العصمة من الذنوب، ويكون هذا دليلاً آخر على نبوته من زاوية العصمة.

ب- ما وراء الأستار في التنبيهات الموجهة للرسول ﷺ

١. أسرى بدر

نـــزلت الآيات التالية في موضوع أسرى بدر وكأنها تحمل تنبيهاً للرسول ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَـــرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الاخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُـــوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٩).

لا يجوز أن يكون للنبي أسرى، وما كان للأنبياء السابقين، إذن، فما العمل بالنسبة للأسرى؟ ماذا يُفعل بهم؟ يجب ألا يكون للنبي أسرى حتى يقوي وضعه ويثبت رجله في الأرض دون الحاجة إلى معونة من أحد، أي ما كان له إطلاق الأسرى حتى مقابل الفدية، لأن هذا سيسرع من تمكـــين المـــؤمنين في الأرض ويقويهم ويعجل وصولهم إلى توازن مع أعدائهم ويجعل منهم قوة. وأنت أيضاً تهدف للوصول إلى هذه الغاية وأصحابك أيضاً. هناك اجتهاد، ولكـــن كـــان هناك اجتهاد أفضل وأحسن، أي أنكم اجتهدتم وأخذتم الحسن وغاب عـــنكم الأحسن الذي يريده الله تعالى منكم.

لولا أنه كُتب في القدر ألا أعاتبكم فيما أخذتم لجاءكم عذاب عظيم، ولكـــن هذا الكتاب وهذا الحكم موجود منذ الأزل، لذا فلن يأتيكم مثل هذا العذاب.

عندما قام الرسول ﷺ بردّ المشركين على أعقابهم في معركة بدر نـــزل النصر بردا وسلاما على قلوب المؤمنين. لكأنه أطفأ بذلك حريقاً دام في قلوبهم خمـــس

عشرة سنة، لأنه لم يبق هناك ألم لم يتجرعوه من هؤلاء الكفار، و لم يبق هناك ظلم لم يصبهم منهم، ثم أخرجوهم من ديارهم وبيوتهم وأهليهم في مكة. تحملوا كل هذه الآلام والدموع دون أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد كان ذلك ممنوعاً عليهم حتى وقت قريب، ثم صدر لهم الإذن بالدفاع عن أنفسهم لأنهم ظُلموا: ﴿وَاللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩). أجل، أصبح المؤمنون مخولين بالدفاع الفعلي عن أنفسهم ومقابلة القوة بالقوة، فكانت معركة بدر أول معركة كبيرة بين المؤمنين والكفار حيث انتصر فيها المسلمون وأسروا عدداً كبيراً من الكفار. كانت هذه الحادثة الأولى من نوعها ومسألة لم يكن لها أي حكم إلهي سابق أو أي إيضاح سابق، وهنا قام الرسول ﷺ كعادته دائماً واستشار أصحابه، فالذي يتقرر في هذه المشورة هو الذي سيعين كيفية التعامل مع الأسرى.

كان الرسول ﷺ يحب إطلاق سراح هؤلاء الأسرى تمشياً مع خلقه اللين وكذلك مع التوجيه الإلهي السابق له، لأن القرآن الكريم خاطبه ذلك الوقت ووجهه في هذا الاتجاه: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥)، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥) حتى أصبح العفو والصفح طبعاً من طبائعه وخلقاً من أخلاقه، وأصبح أي تصرف يخالف هذا غير متوقع منه، ذلك لأن القرآن الكريم كان يمدحه ويقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤). لكل فرد نصيب معين من الخلق، أما هو فله الخلق الكلي الشامل لكونه في الذروة من التخلق بخلق الله تعالى، هذا الخلق المتدفق من بين سطور القرآن الكريم وسوره، وكان ﷺ هو الذي يمثل هذا الخلق.[1] ولكي

(١) **مسلم**، صلاة المسافرين، ١٣٩؛ **أبو داود**، التطوع، ٢٦

تعرف هذا الخلق الكريم فيكفي أن تتأمل تصرفه وسلوكه تجاه أهل مكة الذين آذوه كل الإيذاء طوال سنوات طويلة، إذ قال لهم قول النبي يوسف عليه السلام: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيكُمُ الْيَومَ﴾ (يوسف: ٩٢)، ثم أعلن العفو العام عنهم.[١]

كان خلقه وقناعته تميلان نحو العفو على الدوام، ومع ذلك كان يستشير أصحابه في كل شأن، فاستشار أولاً أبا بكر رضي الله عنه فكان جوابه: "يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فيكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا لنا عضداً." ثم توجه رسول الله ﷺ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» فأجابه عمر رضي الله عنه: "والله ما أرى ما رآى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان -قريب لعمر- فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم."[٢]

توضحت الآراء، الصديق رضي الله عنه يرى إطلاق سراح الأسرى، وعمر الفاروق رضي الله عنه يرى قتلهم، والتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه ثم إلى عمر رضي الله عنه قائلاً: «..وإن مَثَلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/٥٥؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٣٤٤

(٢) **مسلم**، الجهاد، ٥٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٣١-٣٢

فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٣٦). ومَثَلك كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨).»[١]

وفي مناسبة أخرى كرر رسول الله ﷺ هذا المعنى قائلا: «تَرِدُ عليّ أمتي الحوضَ وأنا أذود الناس عنه[٢] كما يذود الرجلُ إبلَ الرجلِ عن إبله.» قالوا: يا نبي الله! أتعرفنا؟ قال: «نعم، لكم سيما،[٣] ليست لأحد غيركم، تردون عليّ غراً محجَّلين من آثار الوضوء، وليُصَدّنّ عني طائفة منكم فلا يصلون فأقول: يا رب هؤلاء أصحابي، فيجيبني مَلَك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك.» وفي رواية: «...فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٧).»[٤]

كان أبو بكر ﷺ أول تلميذ من تلاميذه، وكان أسلوب تفكيره يشبه أسلوب تفكير الرسول ﷺ لذا، كثيراً ما تشابهت قراراتهما. التفت الرسول ﷺ إلى عمر ﷺ وشبهه بنبيين من الأنبياء من ذوي العزم: «وإن مَثَلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (نوح: ٢٦)،

---

(١) «**جامع البيان**» للطبري ٤٣/١٠؛ «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ٣١/٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٨٣/١

(٢) **أذود الناس**: أمنعهم.

(٣) **سيما**: علامة.

(٤) **البخاري**، تفسير (٥) ١٥

ومثلك مثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨).[1]

صبر هذان النبيان العظيمان عليهما السلام على الأذى الكبير والدائم من كفار ومشركي قبيلتهما ومن الكفار الآخرين، وعلى عناد قومهما الذي كان يزيد على مر الأيام، فلم يجدا أمامهما سوى التوجه إلى الله تعالى بدعائهما المذكورين، فبقاء هؤلاء الكفار كان شراً للأحياء وشراً للأموات، فاستجاب الحق تعالى لدعائهما وتجلى على هؤلاء الكفار باسمه القهار وأهلكهم.

وأخيراً استقر رأي رسول الله ﷺ مع رأي أبي بكر ﷺ منجذباً إليه من طبيعة حلمه وخلقه اللين المتسامح وطمعاً أن يهديهم الله للإسلام في المستقبل فيكونوا له عضداً. والآن لنستمع إلى بقية الحادثة من عمر بن الخطاب ﷺ:

..فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر و لم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئتُ فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرَضَ عَليّ أصحابُكَ من أخذهم الفداء، لقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة» -شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسرَى حَتّى يُثْخِنَ فِي الْأَرضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلاَلاً طَيِّباً﴾

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ١/ ٣٨٣

(الأنفال: ٦٧-٦٩)، فأحل الله الغنيمة لهم.[1]

كان الله تعالى قد أعطاه الإذن والصلاحية والقابلية للاجتهاد، فقام بهذا الاجتهاد وتوصل إلى "الحسن"، ولكن الله تعالى كان يريد لأحب مخلوق لديه أن يصل إلي الأحسن والأجمل، ولهذا السبب قام بتنبيهه وتذكيره، أي لا يوجد هنا ذنب أو إثم، ثم يجب الانتباه إلى الأسلوب المستعمل في الآيات الكريمة تجاه الرسول ﷺ: ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٨).

وكلمة "لولا" في اللغة العربية تُستعمل عند "امتناع الشيء لوجود غيره"، إذن، يجب الانتباه عند ذلك إلى معنى الآية التي تقول بأن حكماً صدر منذ الأزل وأنه تبعاً لذلك الحكم ستأخذون الغنيمة وتستفيدون منها.

إذن، فالغنيمة -وضمنها الأسرى- لم تعد حراماً حتى بعد هذا الاجتهاد، ويكون الموضوع كله موضوع امتحان تماماً مثلما حدث في موضوع آدم عليه السلام تُرك الأحسن للحسن، وبعد معركة بدر رجعت الأمور إلى أوضاعها الأعتيادية حيث تذكر آية أخرى: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لاَنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤).

فكأن الرسول ﷺ حدس هذا الحكم الإلهي من ذلك الوقت، ولكن استباق

(١) **مسلم**، الجهاد، ٥٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٣١-٣٣

هذا الحكم آنذاك كان "حسناً" أما انتظار صدور الحكم فكان هو "الأحسن".

ثم إن الرسول ﷺ عندما عدّ أموراً خمسة أعطيت له و لم يعطهن أحد من قبل ذكر «وأُحِلَّت لِيَ الغنائم و لم تحل لأحد قبلي.»[1] فالغنائم التي لم تكن حلالاً حتى معركة بدر، و لم تكن حلالاً للأنبياء السابقين أصبحت حلالاً للمسلمين بعد آية ظاهرها العتاب للرسول ﷺ. وشيء آخر يجب الأنتباه له وهو ان الحكم الذي أحل الغنيمة جاء بعد اجتهاد الرسول ﷺ. هذا الاجتهاد -وكل اجتهاد آخر- الذي إن أصاب فيه المجتهد فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد. وحسب خلقه العام لم يكن أمامه سبيل أخر غير هذا الاجتهاد، لذا فما لبث أن صدر الحكم على إثر اجتهاده هذا.

كون الغنيمة حلالاً ثابت بالنصوص الدينية، وهذا لا ينافي الإخلاص في كون الجهاد في سبيل الله. ذلك لأن الحصول على هذه الغنائم والإمكانات المالية الموجودة لدى الأعداء كان يضعف الأعداء ويُقوي المسلمين، ثم هناك ناحية التشويق والترغيب للذين لم يبلغ إخلاصهم المستوى المطلوب مع ملاحظة أنها أصبحت مورداً للعيش لا غنى عنه للذين نذروا كل حياتهم للجهاد على ألا تكون هي الغاية من الجهاد. ولكن لا يكره أحد أيضاً على أخذ الغنيمة، إذ يستطيع كل شخص أن يقول ما قاله عمرو بن العاص: "ما أسلمت من أجل المال."[2] ولكن يجب ألا يتوقع مثل هذه التضحية من الجميع.

---

(١) **البخاري**، التيمم، ١، الصلاة، ٥٦؛ **مسلم**، المساجد، ٣

(٢) «**المسند**» للإمام أحمد ١٩٧/٤

وقبل اختتام هذا الموضوع أود أن أذكر بمسألة الفاكهة المحرمة لآدم عليه السلام، فكما امتحن الله تعالى آدم عليه السلام بالفاكهة التي أحلها له فيما بعد، كذلك أحسب أن الوضع نفسه تكرر في موضوع الغنيمة التي أحلت فيما بعد التي أصبحت وسيلة امتحان بعد معركة بدر، ثم جاءت الأحكام الأساسية في هذا الموضوع. وبما أن الاجتهاد كان متماشياً مع هذه الأحكام لذا، لم يكن هناك ذنب، وإنما اقتصر الأمر على التنبيه إلى الميل الفطري لدى الإنسان نحو مال الدنيا وتم التحذير من الانغمار في هذا الميل.

والحقيقة أن التحذير الوارد هنا والدرس المراد تلقينه هو للمسلمين جميعاً. أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فهو لم يكن له من قبل ولن يكون له من بعد أي ميل للدنيا، فهذا التحذير موجه للمسلمين في شخص الرسول ﷺ لكي يعتبروا من جهة ولا تُمس كرامتهم من جهة أخرى. وهنا يتبين مدى الحساسية التي تبديها التربية الإلهية عند توجيه خطابها للمستمع.

٢. غزوة تبوك

مع أنه لم تقع معركة في تبوك ورجع المسلمون دون أن يدخلوا في حرب فعلية مع البيزنطيين إلا أنهم تهيأوا لهذه المعركة بشكل جدي وكانت حركة إرهاب للبيزنطيين، لذا دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى الجهاد وطلب منهم التهيؤ الكامل له وخرج للحرب في جو من النفير العام. ولكن بعضهم استأذنوا رسول الله ﷺ وأبدوا له معاذير مختلفة فأذن لهم بعدم الاشتراك في الحرب، وكان هذا هو السبب في نزول آية نرى في ظاهرها عتاباً للرسول ﷺ إذ

كانت تقول له: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة: ٤٣).

وعندما ينظر الإنسان إلى جملة ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ﴾ يتخيل وكأن هناك ذنباً تم اقترافه، ولكننا نرى أن هذه الجملة أقرب إلى تعبير "يا من هو مظهر لعفو الله."

أولاً إن البدء بمثل هذه العبارة يستهدف استلطاف خاطره، وتأخرت الجملة التي تحتوي التنبيه إلى الأخير. وهكذا تم تلطيف الجو، إذ لو قال له ابتداء "لم أذنت لهم" لتفطر قلبه فَرَقاً. فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه الصلاة والسلام. لذا، يقول علماء اللغة مثل النحاس والمهدوي والمكي والمفسرون أن هذه الآية تحتوي على توجه للرسول ﷺ وليس على تنبيه.[1]

ولعل الله تعالى أراد أن يذكر رسوله بما يأتي:

كل من جاءك يستأذنك أذنت له دون أن تمانع مع أنك تعلم أن بين المستأذنين كثيراً من المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام وقلوبهم مملوءة بالنفاق والفساد، فلماذا أذنت لمثل هؤلاء؟ كان من المفروض أن يتميز المؤمنون الصادقون الذين برهنوا لك على الدوام على صدقهم عن هؤلاء المنافقين الكذابين الذين وصفتهم أنت فقلت عنهم أنهم: «إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»،[2] كانت هذه فرصة لكي يظهر لك هؤلاء فرداً فرداً.

وسيأتي يوم يعرفهم الرسول ﷺ، ولكن طبعه اللين وخلقه السمح أخّر هذا

---

(١) «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ٩٨/٨-٩٩؛ «**الكشاف**» للزمخشري ١٩٢/٢

(٢) **البخاري**، الإيمان، ٢٤؛ **مسلم**، الإيمان، ١٠٧؛ **الترمذي**، الإيمان، ١٤

الأمر قليلاً.

وكما تبين فالأمر كله أمر تذكير وليس هناك عتاب، بل يمكن حتى حدس وجود ثناء. وهنا أيضاً يتم إرشاد الرسول ﷺ إلى "الأحسن" وإلى "الأجمل" لأن هذا هو ما يليق به.

يقول الزمخشري بأنه مادام هناك حديث عن "عفو" إذن، فلابد من وجود ذنب،[1] ولكن فخر الدين الرازي لا يقبل هذا الكلام أبداً إذ يقول في تفسيره بأنه قد يكون هذا الأمر وارداً بالنسبة إلينا، ولكن إن ذكرت كلمة العفو بالنسبة إلى الأنبياء فلا تحمل هذه الكلمة إلا معنى التبجيل والثناء.[2] ونحن نرى هذا ونقول بأن هذه الآية تحمل ثناء للرسول ﷺ.

وكما قلنا سابقاً فالرسول ﷺ كان صاحب فطنة كبيرة، يعرف كيف تجري الأمور وكيف تنفذ المهمات والأعمال معرفة جيدة. وكانت الآية تعرض هنا عليه طريقة بديلة في العمل وهي: يجب ألا يؤذن لهؤلاء حتى يتميز المنافقون تماماً عن المسلمين، فلا يُعطى للمنافقين فرصة بريئة كالإذن يستظلون به فلا يُعرفون حق المعرفة، ذلك لأن المنافقين ما كانوا ليشتركوا مع المسلمين في هذه الحملة حتى وإن لم يأذن لهم الرسول، ولكنهم كانوا يظهرون آنذاك على حقيقتهم وأنهم منافقون، وكان هذا هو مايريده الله تعالى وما يطلبه من رسوله ﷺ مع أنه أخبره بحال المنافقين، إلا أنه كان يريد إظهارهم في هذا الامتحان،

---

(١) «**الكشاف**» للزمخشري ١٩٢/٢

(٢) «**مفاتيح الغيب**» لفخر الدين الرازي ٧٣/١٦-٧٤

وبقيام الرسول ﷺ بإعطاء هذا الأذن -تمشياً مع خلق العفو الموجود في طبيعته- فقد ضاعت هذه الفرصة.

هذا التصرف كان من آثار الخلق العام للرسول ﷺ، فمثلاً لم يحاول في أي فترة هتك ستر أي شخص، فلم يصحح خطأ أي فرد بذكر اسمه وأخطائه صراحة، بل فعل ذلك على الدوام تلميحاً ودون تعيين، وبذلك حال دون المساس بكرامة أي شخص. كان هذا هو خلق النبي ﷺ كل إنسان يتصرف حسب طبيعته وخلقه، وكان النبي ﷺ يتصرف أيضاً حسب خلقه الرفيع، فأي نبي لا يهتك ستر أحد ولا يهيئ الأساس لهلاك مخاطبه، ولم يفكر النبي ﷺ بإظهار عيب أو عيوب أي شخص وفضح ذلك الشخص أو وضعه في موقف حرج ومُخجل. فمثلاً كان رسول الله ﷺ يعرف جميع المنافقين فردا فردا ويعرف رئيسهم ولكنه لم يفش هذا السر، بل كان يتصرف حيالهم مثلما يتصرف مع أي مؤمن أخر، حتى أن منافقاً جاءه يوماً معلناً ندمه بعد أن زال النفاق عن قلبه وأخبره بأنه يعرف منافقين كثيرين وأنه مستعد للتصريح بأسمائهم ودعوتهم إليه لكي يتوبوا مثله فلم يقبل الرسول ﷺ ذلك لأنه لا يرغب في هتك ستر أحد.

كان عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول من ألد أعدائه ولكنه كان يتظاهر بالإسلام، وكان الرسول ﷺ يعامله حسب ظاهره ويود لو أنه كان كما يتظاهر، لذا لم يقطع عنه أمله حتى نهاية حياة هذا المنافق الذي لم يقدر له الله تعالى الهداية، بل الموت منافقاً. وعندما مات جاء ابنه إلى الرسول ﷺ طالباً منه قميصه ليكفن به والده كما طلب منه الصلاة عليه والاستغفار له فلبى الرسول ﷺ جميع هذه

الطلبات إذ أعطاه قميصه، وقام بالصلاة عليه،[1] و لم يهتك سر هذا المنـــافق، ذلك لأن ابنه وبنته كانا من المسلمين الصالحين لذا، تحمل الرسول ﷺ بسببهما كل أعمال هذا المنافق.

ولإعطاء فكرة في هذا الصدد نورد هذا المثل الصغير: أراد أحد الـــصحابة بيع أمة له ولكنه أراد إبقاء الولاء عنده، بينما يكون الولاء في الإسلام لمن أعتق العبد، و لم يكن من الصحيح ولا من اللائق طلب هذا الشيء، بينما يأمر الدين بعكسه، ويحتمل أن ذلك الصحابي لم يكن يعرف حكم الدين في هذا الموضوع و لم يبلغه شيء حوله، وعندما علم الرسول ﷺ بهذا لم يستدع ذلك الـــصحابي و لم يعنفه، بل صعد إلى المنبر وأبان عن حكم الدين في هذا الموضـــوع دون أن يسمي أحداً إذ قال: «إنما الولاء لمن أعتق.»[2]

ويمكن إيراد أمثلة عديدة جداً في هذا الخصوص، حيـــث يظهـــر لنـــا أن الرسول ﷺ لم يكن يجابه أي مذنب بذنبه، و لم يتسبب في إحـــراج أي أحـــد بسبب ذنوبه أو أخطائه.

وفي موضوع الإذن هذا أيضاً لعب خلقه الكريم هذا دوراً كبيراً، فلم يـــشأ أن يهتك سر أي أحد راجعه وأستأذنه، وقبل ظاهرهم وأذن لهم. أجل، كـــان صدره واسعاً حيث قال الله تعالى عنه: ﴿أَلَمْ نَشرَح لَكَ صَدرَكَ﴾ (الانـــشراح: ١)، أجل، لقد تجلت فيه سر هذه الآية الكريمة، فعندما كان المنافقون يكذبون

---

(١) **البخاري**، الجنائز، ٢٣، اللباس، ٨؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٢٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٨/٢

(٢) **البخاري**، الكفارات، ٩؛ **مسلم**، العتق، ٥

في موضوع ما كان النبي ﷺ يقوم بإسدال ستار على هذا الكذب ولايفضحهم بل يريهم كيف يكون خلق النبي.. فما أعظمه من نبي تبارت التوراة والإنجيل والفرقان في مدحه.

٣. سورة عبس

قد تبدو سورة عبس وكأنها تحمل عتاباً للرسول ﷺ. لذا، سنقوم -قبل الدخول إلى تحليل هذا الموضوع- بشرح سبب نزول هذه السورة ثم شرح معاني آياتها لإثبات عصمة الرسول ﷺ في هذا الموضوع الذي يريد البعض وضع ظل على عصمته الواضحة وضوح الشمس.

كان الرسول ﷺ جالساً مع كبار رجال قريش من أمثال عُتبة وأبي جهل يبلغهم رسالة ربه ويدعوهم إلى دينه، وبينما كان مندمجاً في هذا الموضوع، قد ركز عنايته وانتباهه إلى دعوتهم إذا بشخص ضرير هو عبد الله بن أم مكتوم ﷺ يدخل عليهم ويخاطب رسول الله ﷺ قائلاً: "يا رسول الله! أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى"، وكرر ذلك و لم يعلم انشغال الرسول ﷺ بالقوم، فكره الرسول ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآية. هذا هو ملخص ما قيل في سبب نزول هذه الآية.

فإذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الزاوية قلنا بأن الصحابي لو لم يكن أعمى وكان بصيراً لما تعرض الرسول ﷺ لأي عتاب، أي كان من المفروض على الرسول ﷺ أن يسامح هذا الشخص لكونه أعمى، لذا فعبوسه وإعراضه عنه استوجب التنبيه. هذا هو الحكم السطحي الذي نصل إليه إن تناولنا الموضوع

بهذا الشكل، ولكننا إن تعمقنا في الموضوع رأينا الوجه الآخر له وعلمنا مدى استعجالنا في إصدار الحكم السابق.

أولاً هناك شروط وآداب عند الدخول إلى مجلس أي شخص، ثم إن الدخول إلى مجلس رسول الله ﷺ لا يشبه الدخول إلى أي مجلس آخر، ولا يمكن التصرف فيه كالتصرف في مجلس أيّ شخص آخر، لذا نرى القرآن الكريم يشرح في آيات عديدة للمسلمين آداب حضور مجلس الرسول ﷺ، متى يتم الحضور وكم يمكث فيه[1] وكيف يتحدث معه بصوت خفيض،[2] شرح الله تعالى للمؤمنين كل هذه الأمور.

والأمر وارد بالنسبة للمثول بين يدي الله تعالى، وعدم جواز المرور بين يدي المصلى مثال جيد على هذا، ففي المذهب الحنفي ينبه الشخص المار بين يدي

---

(١) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٥٣).
قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ٥٨).

(٢) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(الحجرات: ٢-٣).

المصلي، ويمنع بالقوة من هذا في المذهب المالكي، فإذا أصر الشخص على ذلك يجوز أن تضربه ضربة على صدره.[1]

ذلك لأن المصلي واقف بين يدي سلطان الكون ومالك الملك يتحدث إليه، علماً بأن المرور بين شخصين عاديين يتكلمان لا يجوز من ناحية آداب السلوك والمعاشرة فكيف بمن يفعل ذلك مع المصلي؟ لذلك نرى رسول الله ﷺ يقول: «لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه.»[2] إذن، فكما توجد آداب معينة في الحضور بين يدي الله تعالى، توجد كذلك آداب معينة في مجلس رسول الله ﷺ.

ماذا كان رسول الله ﷺ يفعل آنذاك؟ كان يريد نقل إلهام قلبه إلى القلوب المتحجرة الصلدة، وهو الذي وصف القرآن الكريم حرصه على هداية الناس بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف: ٦) و﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ ألاَّ يَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣).

أجل، كان يحزن ويغتم غما شديداً عندما يرى إنساناً غير مؤمن حتى يكاد يهلك غماً وحزناً. عندما كان النبي منشغلاً بكل جوارحه في جو الدعوة إلى الله دخل أحدهم وبدأ يتكلم ويخل بالجو الموجود هناك. صحيح أن للقادم عذراً في هذا، إذ كان أعمى لايرى.. فإذا عبس الرسول ﷺ وأعرض عنه فله عذره الشرعي في ذلك، لذا لا نتفق مع الذين يريدون استعمال هذه الحادثة في

---

(١) «**كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**» للجزيري ١/٢٧٢-٢٧٣

(٢) **البخاري**، الصلاة، ١٠١؛ **مسلم**، الصلاة، ٢٦١؛ **أبو داود**، الصلاة، ١٠٨

الطعن بالرسول ﷺ ونرى ذلك خطأ.

هذا هو الجواب إن كانت الحادثة جرت بهذا الشكل، هذا علماً بأنه لا يوجد في كتب الأحاديث المعتبرة كالبخاري ومسلم وابن ماجة وأبي داود والترمذي والنسائي ومسند ابن حنبل والمستدرك جريان هذه الحادثة بالشكل الوارد في بعض التفاسير التي تشير إلى بطلين في هذه الحادثة هما الرسول ﷺ وابن أم مكتوم رضي الله عنه وإلى شخصين ثانويين هما أبو جهل وعُتبة، بينما يذكر المفسرون المحققون أسماء مختلفه للشخص الذي أتى إلى الرسول ﷺ حتى أنهم اختلفوا عما إذا كان هذا الشخص أعمى حقيقة أم بالمعنى المجازي. إذن، يجب النظر إلى هذه الحادثة من زاوية أفسح.

ترد هنا أسماء سبعة أشخاص غير اسم ابن أم مكتوم، أي يبلغ عدد الأشخاص الواردة أسماؤهم ثمانية وليس هناك أي دليل يرجح اسم ابن أم مكتوم في هذه الحادثة. وهذا الصحابي الجليل رضي الله عنه استخلفه الرسول ﷺ في المدينة في كثير من غزواته، واستشهد في أغلب الأقوال في معركة القادسية.[1] وكان قريباً للرسول ﷺ عن طريق أمنا خديجة رضي الله عنها إذ كان ابن خالها، لذا لم يكن هناك أي سبب يدعو إلى استثقال دخوله إلى هذا المجلس، وعلى الرغم من كونه أعمى فقد استخلفه الرسول ﷺ في المدينة أي كان شخصاً يعرف كيف يتصرف التصرف اللائق ويعرف كيف يتكلم، لذا نرى أنه أقل الأسماء الواردة في هذه الحادثة احتمالاً.

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٥٢٣-٥٢٤

ومن يدري فقد يكون الأعمى الذي جاء إلى الرسول ﷺ من سيئي النيـــة، ولما كان الرسول ﷺ يعلم أنه غير مخلص في طلبه فقد عبس وتولى عنه، وهـــذا تصرف طبيعي، غير أننا لا نصر على قولنا هذا ولا نقطع به، غير أن الحادثـــة الواردة في حق ابن أم مكتوم ليست أكثر قطعيةً، بل ننظر إلى كلا الاحتمالين نظرة متساوية.

هناك شيء أخر يسترعي الملاحظة، فقد أورد بعض المفسرين أن الـــضمير في "عبس" و"تولى" يعود إلى الوليد بن المغيرة وورد فعل "عـــبس" في القـــرآن مرتين، أحدهما هنا والآخر في سورة المدثر في حق أحد الكفار، وسواء أكـــان ذلك الكافر الوليد بن المغيرة أم غيره (فالعَقَّاد يقول أنه لا يمكن أن يكون الوليد بن المغيرة هو المقصود في سورة المدثر، ذلك لأن آية تقول عنه أنه "زنيم"، بينما كان والد خالد شخصاً معروفاً وأصيلاً -وإن كان كـــافراً- وســـليل عائلـــة معروفة) لا نجد في السنة الصحيحة أيّ دليل على كون ذلك الـــشخص هـــو الوليد بن المغيرة.

فإذا كان القرآن الكريم استعمل كلمة "عبس" في حـــق كـــافر فكيـــف يستعملها في وصف رسول الله ﷺ وهو الشخص الذي كان دائم التبسم؟

والوضع نفسه نراه في الفعل "تولى"، إذ استعمل القرآن هذا الفعل في حـــق فرعون فقال ﴿فَتَوَلَّى فِرعَون﴾ (طه: ٦٠). صحيح أن هذا الفعل لم يستعمل في حق فرعون فقط ولكنه استعمل بهذا الأسلوب في حق أمثال فرعون.[1]

(١) انظر: البقرة: ٢٠٥؛ طه: ٤٨؛ النجم: ٣٣؛ المعارج: ١٧؛ الغاشية: ٢٣؛ الليل: ١٦؛ العلق: ١٣

فكيف يمكن أن يستعمل القرآن فعلين من هذا القبيل واحداً إثر آخـــر في حق الرسول ﷺ؟ وكيف يرى من المناسب تصويره بهذه الصورة؟

وفي الحقيقة يجب النظر إلى الذين قدموا هذه الملاحظة الأخيرة بأنهم قد يكونون على حق، فهؤلاء يرون أن الفاعل في الفعلين "عبس" و"تولى" ليس هو الرسول ﷺ بل هو الشخص الكافر الذي عمي عن الحقيقة.. جاء وكأنه أعمى لا يبصر شيئاً وعبس في وجه الرسول ﷺ، ثم تولى عنه. فإذا أخذنا عصمة الأنبياء بنظر الاعتبار قلنا: ربما يكون هذا صحيحاً، ولا أذكر في الحقيقة أي رواية تنقض وجهة النظـــر هذه، وما دام السياق يطابق المعنى فلاأرى سبباً لردها.

إن هدفنا من إيراد هذه الأمور التي أطلقنا صفة "المحتمل" علـــى بعـــضها، و"الأكيد" على البعض الآخر هو بيان قدسية السنة والإفصاح عن مكانتها التي يحاول البعض النيل منها، وذلك بتناول الآيات التي نـــزلت في تنبيه الـــنبي ﷺ تناولا سطحيا، والقيام بتصريحات غير لائقة بحق هذا المصدر الإلهي (الـــسنة)، ومحاولة التهوين من قدر النبوة وإضعافها في نظر المؤمنين، وإظهار أنها ضـــعيفة ولا تستند إلى أساس ويمكن إيجاد بدائل عنها.. وإلا فإن الناس يعرفون جيـــدا المرتبة العالية للرسول ﷺ لدى الحق ﷻ.

أجل، كان إنساناً متميزاً لا نظير له، وكان إرتباطه بالله تعالى ارتباطاً وثيقاً في عهد فريد. الله يوحي إليه وهو يقوم بتبليغ هذا الوحي، وحافظ الله تعـــالى على عصمته على الدوام، لذا كان علينا أيضاً المحافظة عليها قياماً بحق الوفـــاء تجاهه، وأداء لحقه علينا، وهذا هو سبب ما نبديه من تلهف وعاطفة في هـــذا

الموضوع، ذلك لأن هناك الكثير من القوى والأشخاص في الداخل وفي الخارج يريدون وضع هذه الشخصية الفريدة العملاقة على منضدة التشريح والنقد وتقييمه مثل سائر الناس العاديين، لذا نرى أن الدفاع عن عصمته وعفته مقدم على دفاعنا عن اعراضنا وشرفنا.

غير أننا ندرك أن قوتنا محدودة، فإمكانياتنا في الصراع مع أعداء الدين والإيمان ومع أذنابهم غير كافية لأنهم يهدمون ونحن نبني، هم يستخدمون وسائل الدعاية العالمية المخيفة، بينما لا نملك نحن سوى هذه الإمكانيات الضئيلة، ولكنهم كما غُلبوا في كل عهد وزمان في المستوى العقلي والعلمي فسيكون هذا هو مصيرهم الآن أيضاً، ذلك لأنهم يحاولون حجب الشمس بالغربال، إننا لا نود الإجابة على كل التفاهات التي يثيرونها، لأننا نعلم صحة ما كان يكرره آباؤنا من قبل:

لو كل كلب عَوَى ألقمتَه حجراً لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

هنا لا أملك نفسي من التذكير بموضوع مهم هو بمثابة مؤشر يقوم بالإشارة إليه ﷺ: إن الأخبار المتعلقة بالمستقبل والتي أخبرنا بها الرسول ﷺ نراها وكأنها تشرح أحوالنا الحالية، يقول رسول الله ﷺ: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه.»[1]

(١) «**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير ٢٣٤/٧؛ **مسلم**، صلاة المنافقين، ٣٩؛ "**المسند**" للإمام احمد ١٧٨/٣.

إن الفلسفة المادية التي لا تعطي أذنا صاغية للحق ولا للحقيقة قامت بالقضاء على إنسان دنيا الكفر والإلحاد هذا قضاء معنوياً وبقتله قتلاً معنوياً وأشاعت الشك والشبهة بين المسلمين، أي سرى المرض إلى المسلمين أيضاً.

هناك فئة لا تعرف العربية ولا تفقه أسرار اللغة ودقائقها تدعي أن مآل القرآن الكريم -أي ترجمته إلى اللغة التركية- يكفينا وأننا لا نحتاج إلى الأحاديث الشريفة والسنة النبوية الكريمة. وليس هذا بالمشكلة الهينة كما تبدو في الوهلة الأولى، بل هو حملة بدأت منذ أيام أبي جهل وعُتبة وشيبة وامتدت إلى المستشرقين أمثال "غولتسهر (Goldziher)" متنقبة بنقاب العلم، ودخلت عالم المسرح والأدب من قبل أمثال "فولتير (Volter)". أجل، إنها حملة تطبخ في الخارج، وما البعض في بلادنا إلا ممثلون ثانويون يقومون بأدوارهم المرسومة لهم إما في سبيل الشهرة أو لقاء منفعة مادية ضئيلة، فتراهم يقولون:

"القرآن يكفينا، نستطيع أن نحل كل شيء بالترجمة، ما الحاجة إلى معرفة اللغة العربية؟ ألا تكفينا ترجمة معاني القرآن إلى التركية لكي نبلغ درجة الاجتهاد؟"

مثل هذه الأقوال وأمثالها ليست إلا فصلاً واحداً من فصول السيناريو المعد الذي يقف وراءه أخطبوط عالم الكفر، وما هذه الأقوال إلا تجربة وجس نبض غيرة المسلمين عما إذا كان الجو مساعداً وملائماً للتمادي في تشكيكياتهم، فإن وجدوه ملائماً فلن تقف هذه الأقوال عند هذه الحدود.

لذا، فإننا في حاجة ماسة وأكثر من أي وقت مضى إلى إحياء التوقير نحو رسول الله ﷺ.. التوقير الذي كان يحسه الصحابة نحوه، لذا يجب جعل هذا الشعور

عندنا جزء لا ينفصم من كياننا، ولا يكون هذا إلا بمعرفتنا الجيدة بعصمة رسول الله ﷺ وبسد الثغرات التي يمكن من خلالها النفاذ الى خدش هذه العصمة.

كان الصحابة يجلسون في مجلسه يستمعون إليه وكأن على رؤوسهم الطير،[1] وفي هذا المجلس لم يكن كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعلي ﷺ يتكلمون إلا لماماً، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أنهم في مجلس نبي مؤيد بالوحي الالهي، فالاستماع إليه استماع إلى المتكلم الأزلي، لأن الوحي الإلهي كان ينعكس بكل صفاء ونقاء عن قلب الرسول ﷺ، لذا كان الذين يعرفونه يفضلون السكوت والاستماع إليه، وأي كلام آخر لم يكن يرقى إلى مستوى كلامه.. وعندما نرقى إلى مستوى فهم الصحابة سنستمع إلى كلامه ﷺ الناضح بالخير والجمال، ونفتش فيه عن علاج أمراضنا وعللنا المزمنة منذ عصور.

أيّ إنكار لسنته أو عدم توقير لها إنما هو جسر نحو الكفر، والذي اعتاد على التجول فوق هذا الجسر ستنقطع صلته بسلك رسول الله ﷺ ويخرج خارج دائرة أمته ويلتحق بجبهة أبي جهل وأمثاله.

إن طراز التفكير هذا خطير جداً، والطريق الوحيد للخلاص من هذا الخطر وإزالته يكون بمعرفة رسول الله ﷺ معرفة جيدة، ولا شك أن من أهم جوانب الرسول ﷺ هو عصمته، فكأن الدين كله قد ارتبط بهذا الجانب، وفتح أي ثغرة في هذا الجانب سيكون وسيلة لتخريبات كثيرة، وهذا هو سبب اهتمامنا الكبير بهذا الموضوع.

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ٣٧؛ **أبو داود**، الطب، ١؛ **النسائي**، الجنائز، ٨١؛ **ابن ماجة**، الجنائز، ٣٧

٤. اقتراح ثقيف

وآية أخرى تبدو وكأنها تنبيه للرسول ﷺ وهي: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۞ إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ (الإسراء: ٧٣-٧٥).

كانت قبيلة ثقيف تطلب من الرسول ﷺ بعض الامتيازات.[1] إذ سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم اللات ولا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها لأيّ أجل مسمّى. وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يَسْلَموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ.

وقد كانوا سألوه مع ترك اللات أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه.»

وهذه الآيات توضح موقف أفراد هذه القبيلة والموقف الحازم للرسول ﷺ تجاههم، ونحن نقول بكل ثقة بأنه لا يوجد في هذه الآيات أي شيء يمكن أن يلقي ظلاً على عصمة الرسول ﷺ.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/١٨٤؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١/٣١٢-٣١٣؛ «**الدر المنثور**» للسيوطي ٥/٣١٩

لقد جاءوا إليه وهم يتصورون إنهم يستطيعون إمالة قلبه إليهم فقدموا اقتراحاً صبيانياً، لأنهم كانوا جهلاء لا يعرفون معنى الوحي ومعنى النبوة، وكانوا يقولون في أنفسهم إنه مادام حريصاً على دخول الناس إلى الإسلام فلن يرد طلبنا في موضوع هذه الامتيازات طمعاً في دخول هذا العدد الكبير منا إلى الإسلام، بل يغض نظره عن بعض الفرائض ويقبلنا طمعاً في هدايتنا.

كان هذا هو ما يطمعون به، أما الرسول ﷺ فلم يخطر ليس على باله فقط، بل حتى في عالم خياله مثل هذا الأمر، فالدين وحدة واحدة فإذا قمت بتجزئته فلا تستطيع أن تطلق كلمة الدين على هذه الأجزاء، والرسول ﷺ كان رجل استقامة، ما قاله في بدء الدعوة كان هو ما قاله في يومه الأخير، والإسلام هو دين الاستقامة، جاء ليرشد الناس إلى الصراط المستقيم، لذا لا يمكن أن نجد فيه التناقضات أو نجد أحكاماً تنقض أحكاماً أخرى، ومثل هذا التفكير لا علاقة له بأي تفكير أو منطق أو علم.

وما كان الرسول ﷺ بالرجل الذي يمكن أن يقترب من قبول مثل هذا الاقتراح، بل إن تلميذه أبا بكر رضي الله عنه لم يقبل في حوادث الرِّدّة اقتراح بعض القبائل بأداء الصلاة على ألا يدفعوا الزكاة بل دخل في حرب معهم.[1] إذن، فلا يوجد في هذه الآيات إسناد أي ذنب للرسول ﷺ، بل هي تشير فقط إلى بعض الجهلاء الذين قدموا بعض الاقتراحات التي لم يكن للرسول ﷺ أي علاقة بها من قريب أو بعيد. أما الرسول ﷺ فقد كان بريئاً ومنزهاً عن مثل هذه الأفكار.

---

(١) **البخاري**، الاعتصام، ٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٢؛ **أبو داود**، الزكاة، ١

أما الآية الثانية التي نقول: ﴿وَلَولاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيهِم شَيئاً قَلِيلاً﴾، فهي تقول لولا أننا قمنا بتثبيتك حتى جعلناك كالجبل الأشم كان من الممكن أن تحس بميل –ولو ضئيل– إليهم. وهذه الكلمات عرضت في معرض فرض المستحيل، أي يجب النظر إليها على أنها إظهار لسمو الرسول ﷺ وعلو هامته وقامته، أي أننا جعلنا له إيماناً قوياً راسخاً بحيث لا يميل قيد شعرة هنا أو هناك.

ولو لم يكن الرسول ﷺ شخصاً شرف بالنبوة والرسالة، بل كان صاحب دعوة اعتيادية أو مصلحاً فكرياً أو اجتماعياً لكان من الممكن أن يخطر على باله مماشاة هؤلاء طمعاً في كسبهم إلى جانبه بعد إبداء بعض المرونة واللين تجاههم ليقوي ارتباطهم بنفسه، ذلك لأن أمثال هذا الضعف مركوز في طبيعة الإنسان، ولكن رسول الله ﷺ كان نبياً مبرءاً من كل أمثال هذا الضعف، و لم يكن يحاول ربط الناس بنفسه بل بالله رب العالمين، ولما كان من العبث الحديث عن ارتباط أي شخص بالدين إن لم يقبل ذلك الدين ككل فلماذا يقوم الرسول ﷺ بإعطاء أي تعويضات لهم، ولماذا يقوم بتغيير أحكام الدين من أجل خاطرهم؟ ثم إنه ليس إلا نبيّ يبلغ أوامر الله تعالى ونواهيه، أي أن صاحب الأمر والنهي هو الله تعالى أولاً وآخرا وليس أحد غيره.

ومن الممكن أن نفهم المعاني التالية من ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيهِم شَيئاً قَلِيلاً﴾: لولا أننا ثبتناك بالوحي، وجعلنا جميع تصرفاتك تحت مراقبة الوحي لربما قمت – مثل غيرك– باختيار طريق العقل والمنطق عند تبليغك للدين، وعند ذلك كان يمكن أن تفكر كما يأتي: الأفضل أن أقبل هؤلاء كما هم، ثم أقوم بتقوية علاقتهم بالدين شيئاً فشيئاً حتى يكونوا فيما بعد أشخاصاً كاملي الإيمان. أجل، لم يخطر على بالك

هذا مطلقاً، غير أن عدم خطور هذا ببالك ليس إلا نتيجة تثبيتنا لك، فلم نـــدعك لحظة واحدة لنفسك، لذا لم تُظهر أي ميل لهم.

ومعنى آخر: إنك حريص جداً -حسب طبيعتك- على هدايتهم وتكاد تهلك نفسك لأنهم لا يؤمنون، لذا بما أن صدرك واسع للجميع وترغب أن تفتح صدرك للجميع بمقتضى خلق الرحمة والشفقة عندك، فقد تميل بعض الميل إلى اقتـــراحهم لكيلا تردهم عن باب الهداية، ولكننا أعطينا لك استقامة ومقياساً وميزاناً لجميـــع أحاسيسك ومشاعرك بحيث حفظناك عن كل أنواع الإفراط والتفريط.

فالإفراط في شعور الرحمة عندك كان يمكن أن يجعلك تميل ميلاً خفيفاً إلى اقتراحهم، ولكننا حفظناك من هذا فلم تمل إليهم، لأن شعور الشفقة عنـــدك شعور متوازن، وأنت أفضل من تعرف متى وفي أي مقياس ونحو أي شـــخص تتم الشفقة والرحمة، لذا فلن تقوم بتقديم رحمتك أمام رحمة الله تعالى لتحمـــي وتصون باسم هذه الرحمة أشخاصاً ضالين.

هناك قول يسند إلى جلال الدين الرومي: "تعال!. تعال!. مهمـــا كنـــت تعال." هذا القول صحيح من ناحية المعنى، وهو ملهم من الـــسلوك الفعلـــي والعملي للرسول ﷺ الذي كان صاحب قلب كبير لا يستثني أي أحـــد وأي إنسان بل يدعو الجميع إلى الهداية، ولو فرضنا أن جميع من على الأرض اهتدوا إلا واحداً أو اثنين لأبدى الرسول ﷺ رغبة كبيرة في هدايتهما ولو تطلب ذلك منه التضحيات. كان ذا قلب واسع كالسماء يظلل الجميع، ولو لم تكن هناك صيانة الله وحفظه له لربما قبل في صفه حتى من اكتفى بشهادة "لا إله إلا الله"

فقط وأخذه بين جناحي رحمته، ولكن الله تعالى ألهمه التوازن في مشاعره ورعاه وحفظه من الوقوع في الخطأ.

ولا تعني ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ﴾ إنك ركنت إليهم فعلاً، إذ لايجوز النظر إلى حادثة محتملة وكأنها وقعت فعلاً، فهذا ضعف في التفكير، وعدم معرفة بدرجة سمو منزلة الرسول ﷺ.

ثم إن سياق الآيات يبين أن الرسول ﷺ لم يركن إليهم أبداً: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٦).

٥. خُلقه نحو الفقراء

هناك آية مديح أخرى جاءت بمظهر التنبيه، ونزلت عندما طلب الملأ من قريش من رسول ﷺ طرد العبيد والضعفاء عن مجلسه لأنه لا يجوز لهم أن يجلسوا معه مع هؤلاء المساكين ففي رواية: "مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خبّاب بن الأَرَتّ وصُهَيْب وبلال وعمّار فقالوا: يا محمد! أرَضيتَ بهؤلاء؟ لو طردتَ هؤلاء لاتبعناك."[1] فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٢). وتوجد آية أخرى في سورة الكهف بالمعنى نفسه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ

(١) **المسند**» للإمام أحمد ١/٤٢٠؛ «**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير ٣/٢٥٤-٢٥٥

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف: ٢٨).

ما إن بدأ رسول الله ﷺ بدعوته حتى آمن به الكثير من الفقراء والعبيد، وكان الفقر والعبودية في ذلك النظام الكافر عيباً ونقيصة، بينما أتى الرسول ﷺ بدين يرى التمايز والعلو في تقوى الله فقط وخشيته،[1] فلم يكن الدين هنا يرى للأغنياء أي ميزة على الفقراء.

قال رسول الله ﷺ: «وإن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي بن أبي طالب وعمّار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود.»[2] كان هؤلاء الأربعة كلهم من الفقراء.. علي كان فقيراً وعمار كان فقيراً وكذلك سلمان ومقداد رضي الله عنهم، أي بينما يشتاق الجميع إلى الجنة، كانت الجنة هي التي تشتاق إلى هؤلاء، فكيف كان بمقدور الرسول ﷺ أن يطرد هؤلاء الذي امتلأت قلوبهم بمحبة الله تعالى وبذكره على الدوام، كيف يستطيع الابتعاد عن هؤلاء القريبين إلى نفسه وإلى قلبه؟

لقد قال لأبي ذر الغفاري ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية» وذلك عندما غضب على بلال وعيره بأمه قائلاً له: "يا ابن السوداء!" ثم قال له ناصحاً ومرشداً: «إخوانكم خَوَلُكُمْ، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل وليُلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبُهم، فإن

(١) قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/ ٣٠٧؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١٤٢/١

كلفتموهم فأعينوهم.»[1]

كان نبياً متواضعاً يدخل الجميع إلى مجلسه، وكان هذا من طبيعة دينه وروحه، فجميع المؤمنين، الغني منهم والفقير، والسيد منهم والعبد، الآمر منهم والخادم كانوا يتوجهون إلى المسجد نفسه ويقفون جنباً إلى جنب في الصلاة ليؤدوا وظيفة العبودية. إذن، فكيف يمكن لنبي هذا الدين أن يطرد بعض المؤمنين لكونهم فقراء؟ أليس هو الذي كان يدعو من الله: «اللّهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة.»[2] فهل يمكن لمن كان هذا دعاؤه أن يطرد من مجلسه أصدقاءه الفقراء؟ كلا، وألف مرة كلا.. لم يطرد الرسول ﷺ من مجلسه فقيراً واحداً و لم يخطر على باله مثل هذا التصرف أبداً.

ولكنه مع هذا كان نبياً يرغب في هداية الجميع بنفس الدرجة، ويروى أنه دعا من الله هداية عمر بن الخطاب ﷺ إلى الإسلام، بل هناك رواية أن الرسول ﷺ أدخل أبا جهل واسمه عمرو بن هشام في دعائه فقال: «اللّهم أعزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب.»[3] أما في دعائه لعمر بن الخطاب ﷺ فقد قال: «اللّهم أيّد الإسلام بعمر بن الخطاب.»[4]

ربما أطلع الله تعالى نبيه على المستقبل وعلى الفتوحات التي سيحققها عمر ﷺ فدعا الرسول ﷺ ليسرع عمر للدخول إلى الإسلام، أو أنه عرف بفراسته

---

(١) **البخاري**، الإيمان، ٢٢؛ **مسلم**، الأيمان، ٤٠

(٢) **الترمذي**، الزهد، ٣٧؛ **ابن ماجة**، الزهد، ٧

(٣) **الترمذي**، المناقب، ١٧؛ **المسند**» للإمام أحمد ٩٥/٢

(٤) **المسند**» للإمام أحمد ٤٥٦/١؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٦٧/٩

قابليته واستعداده فدعا له بهذا الدعاء.

كما كان اهتداء ملأ قريش وكبرائهم إلى الإسلام من أكبر بغية الرسول ﷺ، لذا دعاهم مرات عديدة إلى بيته وهيأ لهم الطعام وحاول تليين قلوبهم، ولكنهم قابلوه بالرد والرفض في كل مرة. من يدري كم من مرة عرض الرسول ﷺ هذه الفرصة الثمينة –فرصة الهداية– على كبراء قريش فلم يعرفوا قيمتها و لم يقدروها حق قدرها.

والآن تسلم من هؤلاء القادة الكبراء عرضاً للاجتماع به، فهل بدت عندهم أي رغبة في الدخول إلى الإسلام؟ صحيح أنه لم يكن متأكداً من ذلك، ولكن وجود أي احتمال لهذا مهما كان ضئيلاً أعطى الأمل لرسول ﷺ، وكان تحقق هذا الاحتمال يُعد نصراً كبيراً للإسلام مثلما كان إسلام عمر ﷺ نصراً له.

ولكن الذي حدث هو أنهم جاءوا باقتراح مخالف لروح الإسلام، لذا فقد أسف الرسول ﷺ من اقتراحهم هذا، لأن مثل هذا الاقتراح كان قد قُدّم إلى جميع الأنبياء السابقين تقريباً، لذا كان عليه أن يرده مثلما رده الأنبياء الآخرون، ولكنه لم يكن يملك نفسه من الأسى والحزن، لأن هؤلاء الناس كانوا يرفضون الهداية التي جاءت حتى أبوابهم بسبب غرور كاذب، كان هذا سبب حزن الرسول ﷺ وكانت الآية تقول له إنه لا ذنب له في هذا الأمر.

كان الرسول ﷺ قد عقد عزمه على ألا يطرد الفقراء من مجلسه على أن يستمر في البحث عن طريق أخرى لهداية الآخرين، فهل كان مصيباً في قراره هذا؟ كانت الآية تقرر هذا وتؤيده في هذا الأمر.

٦. تذكير

أود هنا أن أشير إلى أمر مهم: هناك أوامر عديدة في القرآن الكريم موجهة إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين كافة، وهذه الأوامر والنواهي بمثابة أحكام، ولا تعني أنهم -أي الرسول ﷺ والمؤمنون الآخرون- كانوا يعملون العكس، فمثلاً عندما يخاطب القرآن النبي ﷺ حول إقامة الصلاة والصوم وأداء الزكاة، مثل هذا الخطاب بمثابة أوامر ولا يعني أن الرسول ﷺ لم يكن يصلي أو يصوم أو يؤدي الزكاة كما لا يعني أنه نزل لتنبيه الرسول ﷺ،[1] لذا، فعندما تأتي آية تقول: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ فلا يعني هذا أن الله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: "لماذا طردت الذين يدعون ربهم؟"، فهذا معنى مخالف لعصمة الرسول ﷺ، لأن الرسول ﷺ لم يقم بأي عمل يمكن أن يكون إشارة أو إيماءة إلى أنه قام بما يخالف هذا الأمر، إذن، فهو أمر جاء تصديقاً للقرار الذي اتخذه الرسول ﷺ في هذا الأمر، وإعلاناً لعصمة رسوله وفطنته.

ويتوضح معنى ما قلناه في سورة الكهف بشكل أفضل حيث يقول الله تعالى هناك ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف: ٢٨)، ومعنى الصبر عدم تغيير السلوك، فإذا كان هناك أي تغيير مهما كان طفيفاً فيه فلا يمكن هنا التكلم عن الصبر. فمثلاً تتحدث عن صبر إنسان في العبادة، أي تقول إنه لا يغير عادته في الدوام على العبادة، وتتحدث عن صبره أمام

---

(١) هناك أمثلة كثيرة على مثل هذه الآيات:﴿لَئِن أَشرَكتَ لَيَحبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥)، ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهوَاءَهُم وَقُل آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ (الشورى: ١٥)، ﴿فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (القلم: ٨)، ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقهَر ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنهَر﴾ (الضحى: ٩-١٠).

المحن وأنت تعني أن تصرفه وسلوكه بقي ثابتاً و لم يتغير أمام المحن، وكذلك الصبر أمام الذنوب والآثام، أي الاستمرار في الحال السابق دون أن تغيره الآثـــام، إذن، فعندما يقال لرسولنا ﷺ: "اصبر" فمعناه استمر في موقفك الـــسابق وفي قـــرارك وتصرفك السابق. وهذا يوضح أن الموقف السابق للرسول ﷺ كان موقفاً يُرضي الله تعالى، لأن معنى الصبر ليس في تجديد موقف، بل الاستمرار عليه، إذن، فهنـــا نجد مدحاً للرسول ﷺ وتبجيلاً له، وكون تصرفه وسلوكه مما يرضي الله تعالى.

كان هذا هو خلق الرسول ﷺ الذي بقي محافظاً عليه طوال حياته وحـــتى التحاقه بالرفيق الأعلى وهو طاهر من الذنوب والآثام كيوم ولدته أمه.

٧. زواجه بالسيدة زينب رضي الله عنها

استغل أعداء الدين قديماً وحديثاً حادثة زواج الرسول ﷺ بأمنا زينب رضي الله عنها للافتراء على الرسول ﷺ. ولكن كيدهم ارتد إلى نحورهم وبقيـــت صـــورة رسول الله ﷺ صافيةً ونقيةً.

يذكر القرآن الكريم هذه الحادثة كما يأتي: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيـــهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ (الأحزاب: ٣٧).

كان رسول الله ﷺ يحب زيداً حباً جماً، فهو الشخص الوحيد الذي تبناه، وكان زيد ﷺ يقابل هذا الحب بحب مثله أو أكثر وقريباً منـــه إلى درجـــة أن

الناس كانوا ينظرون إليه وكأنه ابنه. كان زيد ﷺ قد ضحى بنفسه وترك أبويه من أجل البقاء قرب الرسول ﷺ، وفتح رسول الله ﷺ أبواب قلبه له.

كان زيد ﷺ عبداً فأعتقه النبي ﷺ وأعاد له حريته وتبناه، ولكن هذا لم يكن يمسح عن زيد ﷺ -حسب عادات القوم آنذاك- صفة أنه عبد عتيق. كان هذا التفكير والنظر قد نفذ إلى أبعد أبعاد النسيج النفسي لذلك المجتمع، فحتى لو تحرر أي عبد فإنه يبقى مواطناً من الدرجة الثانية فيه. كان من الضروري هدم هذه النظرة من الأساس وتخليص المجتمع من هذه العلة التي كانت تقلق الرسول ﷺ الذي كان ينتظر حلها. ولكن هذا الحل يجب أن يكون عملياً ويُتقبل من ناحية المجتمع، لذا توجه الرسول ﷺ إلى هؤلاء العبيد المتحررين توجهاً خاصاً وبطريقة خاصة.

الحرية مهمة جداً، ولكن الأهم هو الحفاظ عليها والاستفادة منها، فالشخص الذي لا يستطيع حمل الحرية لا يمكن أن يتصرف كإنسان حر وإن أعطيت له الحرية، وهذا ما حدث عندما أعتق العبيد في أمريكا وظهرت هذه الحقيقة المؤلمة، و لم يأت الحل الحقيقي إلا بعد سنين، فهؤلاء العبيد الذين لم يتعودوا العيش بحرية باعوا ما أعطيت لهم من إمكانيات ووسائل العيش وعادوا إلى ساداتهم، لأن الظروف لم تكن بعد مناسبة لأجواء الحرية، فلم يكن الأفراد مستعدين نفسياً لها، و لم يكن المجتمع كذلك مستعداً، لذا لم تعط حركة التحرير ثمارها المرجوة بسرعة.

كان الرسول ﷺ يهيء هؤلاء من الناحية النفسية ومن ناحية التفكير

والتصرف الحر من جهة ويهيء المجتمع لتقبّل هؤلاء كأفراد فيه من جهة أخرى. كان هؤلاء في السابق يعدون متاعاً من الأمتعة، أما اليوم فقد أصبحوا أعضاء في المجتمع.

كان الرسول ﷺ ينتظر اللحظة المناسبة ليضرب الضربة الأخيرة لهذه النظرة الفاسدة المتغلغلة في المجتمع، لم يكن هذا بالأمر الهين البسيط، بل كان أمراً بالغ الصعوبة، ولكن كان بمقدور الرسول ﷺ إنجاز هذه المهمة.

وكما كان ﷺ يقوم في الحروب بتقديم أقربائه إلى المهمات الصعبة في جبهة القتال فقد عمل الشيء نفسه هنا إذ قام بتزويج بنت عمته أخت عبد الله بن جحش زينب بنت جحش أي بنتاً من عائلة أصيلة جداً من زيد رضي الله عنه الذي كان عبداً عتيقاً.

كان الرسول ﷺ يذهب إلى بيت قريبه هذا، لأنه كان بيت عمته، هذا البيت كان ينتظر منذ سنوات إشارة من الرسول ﷺ، ذلك لأن شرف التزوج منه كان حلم كل امرأة، ولم يكن في هذا ما يُستغرب. وكما ذكرنا سابقاً فعندما أراد الرسول ﷺ تطليق زوجته سودة رضي الله عنها أتت إليه سودة وتوسلت إليه أن يستبقيها، ووهبت يومها لعائشة رضي الله عنها، فرغبتها الوحيدة كانت البقاء بجانبه والوفاة وهي زوجته، وما كانت لتتراجع عن أي تضحية في هذا الموضوع.[1]

تلهف عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكي يكون قريباً من هذا البيت الطاهر، لذا طلب

(١) **البخاري**، النكاح، ٩٨؛ **مسلم**، الرضاع، ٤٧

يد فاطمة ﷺ ولكن عندما زوجها الرسول ﷺ من علي ﷺ لم يبق أمام عمر ﷺ سوى انتظار أم كلثوم بنت علي ﷺ، وعندما تزوجها عمر ﷺ كانت في سن صغيرة، وهكذا تحققت أمنية عمر ﷺ في القرب من الرسول ﷺ.[1] لذا، كان من الطبيعي أن تطمع عمة الرسول ﷺ في تزويجه من ابنتها، وكانت زينب رضي الله عنها تليق لكي تكون زوجة نبي، وربما كانت ترغب في الزواج منه ﷺ.

ذهب الرسول ﷺ إلى بيت عمته وقال إنه يطلب يد زينب، فطار أهل البيت فرحاً، ولكن ما إن أخبرهم بأنه يطلبها لزيد حتى وجموا، ذلك لأنه لو لم يكن الرسول ﷺ هو الطالب لردوا زيداً ولم يقبلوا به صهراً، ولكن لم يكن بمقدورهم رد طلب الرسول ﷺ. وهكذا تأسس بيت للزوجية غير قائم على الرضا، ولكن تم ما أريد تنفيذه من الناحية الاجتماعية.

كانت الزوجة ذات حسب ونسب، ونشأت في هذا الجو، أما زيد ﷺ فهو على رغم عتقه من العبودية من قبل الرسول ﷺ كان لايزال في نظر المجتمع شخصاً عتيقاً، أي عبداً سابقاً ومن عائلة متواضعة، لذا لم يتم التوافق والانسجام بين الزوجين، ويجوز أن زيداً رأي بفراسته أنه ليس كفؤا لهذه المرأة التي كانت تملك روحاً وقلباً وسلوكاً وإرادة متميزة.. امرأة تليق لأن تكون زوجة نبي.

راجع زيد النبي ﷺ في هذا الأمر مرات عديدة ذاكراً له أنه يريد الانفصال عن زوجته، وكان النبي ﷺ يقول له كل مرة: "أمسك عليك زوجك واتق الله"، لأن ما كان يهم النبي ﷺ هو قلع هذه الفكرة الجاهلية من المجتمع، لذا

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ٤٩٢/٤

تسبب في هذا الزواج، ولكن التوتر وعدم التفاهم كان يزيد في البيت على الدوام، واقتربت الأمور إلى حد الانقطاع والانفصام.

صحيح أن الطلاق بدا في الأفق، إلا أن الرسول ﷺ كان قد برهن عملياً على إمكانية تزوج عبد عتيق من امرأة ذات حسب ونسب.. كان الرسول ﷺ مرشداً، وعلى كل مرشد أن يطبق ما يقوله أولاً على نفسه وعلى أقربائه، وهذا ما فعله في هذا الأمر أيضاً وحسب أوامر الله وتوجيهه، ثم بدا في أفق الوحي أمارات حوادث يصعب على النفس تحملها.

ثم علم عن طريق الوحي أن زينب رضي الله عنها ستكون زوجة له، ولكنه لكونه لم يتلق الإذن بعد لإعلان هذا الأمر أخفاه في نفسه، وكما قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: "لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية"،[1] وهي الآية حول زواجه من زينب. أجل، كان هذا هو مبلغ ثقل أمر زواجه من زينب، ولكن من يستطيع رد زواج كتبه الله تعالى في الأزل؟ كان الله تعالى يقول: "زوجناكها"، أي هو زواج تم من قبل الله تعالى، وكان الملأ الأعلى هم شهود هذا الزواج، وكان البدل والثمن الثقيل على النفس لهذا الزواج هو إعلان الله تعالى عن حكم معين، وهو أن المتبنين والأدعياء ليسوا مثل أبنائه الحقيقيين، فإن قام أحدهم مثلاً بتطليق زوجته فالأب المتبني يستطيع الزواج إن شاء منها، بينما كان المتبنى في الجاهلية يُعد وكأنه ابن حقيقي له، فإن مات أو طلق امرأته ما جاز للشخص المتبني التزوج من تلك المرأة. كان من الضروري

(١) **البخاري**، التوحيد، ٢٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٨٨

هدم هذا الحكم الجاهلي، وكان من الضروري أن يحمل الرسول ﷺ على عاتقه هدم هذا الحكم، بينما كان من نصيب زينب رضي الله عنها الاشتراك في هدم أمرين مهمين من أمور الجاهلية في زواجيها الاثنين.

وجاء أمر هذا الزواج في بعض التفاسير وكأن الرسول ﷺ رأى زينباً رضي الله عنها عندما كانت لا تزال في ذمة زيد ﷺ فأعجبه حسنها وقال: "سبحانك يا مقلب القلوب"، وأن أمنا زينب رضي الله عنها سمعته.. الخ. وهذا يبين أن بعض الإسرائيليات نفذت حتى إلى بعض التفاسير مع الأسف؛ حتى أن مفسراً -لا أريد ذكر اسمه هنا- قال: "عاد زيد إلى البيت فاطلع" أي علم بالأمر. وأنا أعتقد أن تخيل وقوع هذا الأمر لا يليق إلا بأعداء الدين وليس بعالم مسلم. ونستطيع دحض هذا بسهولة:

أولاً: لم يكن الرسول ﷺ يرى زينب للمرة الأولى، لقد شاهدها منذ صغرها وحتى أصبحت شابه، أي شاهدها مرات عديدة، فلم تكن رؤيته لها مفاجأة كما تصور القصة الكاذبة.

ثانياً: لو كان الرسول ﷺ يحمل أي ميل نحو زينب رضي الله عنها فلماذا يقوم بتزويجها من زيد؟

ثالثاً: كان أهل زينب رضي الله عنها يتلهفون لزواج زينب من الرسول ﷺ، فما المانع من قيام الرسول ﷺ بتحقيق أمنيتهم والزواج منها؟ ولماذا قام إذن، بتزويجها من زيد ﷺ؟

إذن، كان زواج الرسول ﷺ من زينب رضي الله عنها من أجل تنفيذ أمر..

أمر الله تعالى نبيه بذلك فأطاع ونفذ أمره. وكل كلام آخر لا يعد إلا تحريفاً وتضليلاً من قبل أعداء الدين من أمثال "فولتير (Volter)" في السابق وأمثال "غولتسهر (Goldziher)" في التاريخ القريب. فالسيناريوات المختلفة من قبل هؤلاء لا تلائم أبداً أبطالها.. لا تلائم لا الرسول ﷺ ولا زيداً ﷺ ولا زينب رضي الله عنها، بل هي بعيدة عنهم بُعد ما بين المشرقين رغم قيام بعض المسلمين بيننا بلعب بعض الأدوار الثانوية في هذه المسرحية المعدة من قبل الأعداء، ندعو من الله أن يهديهم.

كنا قد بدأنا بحثنا بالقول بأن جميع الأنبياء معصومون، أما رسول ﷺ فهو سلطان المعصومين وأعطينا أمثلة على ذلك، علماً بأن عصمته أبعد بكثير مما شرحنا، و لم نستطع أن نتناولها إلا بحدود قابلياتنا المحدودة. كان ما قلناه حتى الآن يتناول عصمة الرسول ﷺ وعفته وبعده عن الذنوب، والآن سنتناول هذه العصمة من زاوية أخرى، من زاوية زهده وتقواه وخشيته لله تعالى وشعور العبودية والعبادة عنده، لكي نعرض على الأنظار بعض أبعاد ارتباطه بالعالم الآخر وبربه.

الفصل الرابع:

انعكاس العصمة في حياته

أ- زهد الرسول ﷺ وتقواه

كان رسولنا ﷺ أزهد الزاهدين، و لم يكن هناك شخص أبعد منه عن الشك والشبه، وكل حركاته وسكناته كانت قد وُزِنَتْ وضبطت على هذا الأساس، فالخوف من الله تعالى والخشية منه كان بالغاً عنده أقصاه حتى ليكاد قلبه يقف من هذه الخشية والرهبة.. كان يملك قلباً حساساً إلى درجة أن دمعه كان على الدوام جارياً على خده.. كان كالبحر عندما يهدأ وكالسيل العارم عندما ينفعل.

لذا، يكون من الغفلة وعدم الاحترام والضلال عن الحقيقة التقييم الخاطئ للآيات السابقة وإظهاره أنه كان يمكن أن يميل إلى الدنيا أو يقترب من أي ذنب. والله تعالى حفظه في مكان سامٍ بحيث لا يمكن أن تصل إليه ذرة من الوحل الذي أراد أعداؤه أن يلوثوا ثيابه الطاهرة به، ذلك لأن خشيته من الله وزهده كانا يتناقضان مع أي ميل له نحو أي ذنب. وهنا نريد أن نلم إلمامة حفيفة بالأبعاد العميقة لعالمه هذا:

فالزهد يعني ألاّ تفرح حتى ولو ملكت العالم بأسره، وألا تأسف ولو خسرت الدنيا كلها وأضعتها من بين يديك.. كان في الذروة من مثل هذا

الزهد.. فلو أصبحت الدنيا كلها له لما فرح بأمتلاكها قدر فرحه بالعثور على حبة شعير واحدة، ولو ضاعت هذه الدنيا منه في لحظة واحدة لما حزن عليها حزن من فقد حبة شعير واحدة.. كان قد ترك الدنيا قلبياً.. ولكن هذا لا يعني ترك الدنيا وهجرها من ناحية الكسب والمعاش، ذلك لأنه هو الذي علمنا أفضل طرق الكسب الحلال، لذا لا يمكن تصور قيامه بتحريض الناس على ترك الدنيا وهجرها. هجر الدنيا يجب أن يكون قلبياً، وأفضل دليل على هذا أن الدولة التي أنشأها الرسول ﷺ أصبحت من أغنى الدول وأقواها في وقت قصير، وكما قال أحد الكتاب فقد انبثقت خمس وعشرون دولة -كل دولة منها بحجم وقوة إمبراطورية- من الدولة الكبيرة التي أسسها الرسول ﷺ. أجل، هذا هو الأساس في الزهد.

لم يتغير رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول الذي خطا فيه إلى عالم النبوة النوراني وحتى اليوم الذي أقبلت عليه الدنيا راكعة بين يديه، بل إنه عندما توفي بعد إقبال الدنيا عليه كان يملك أقل مما كان يملك عندما أتى إلى الدنيا، ذلك لأنه أنفق كل ما كان يملكه وفرقه على الآخرين.. انظروا إلى ما تركه.. ترك بضع معزات وبعض الغرف الصغيرة التي كانت زوجاته يعشن فيها.. هذه الغرف عادت للأمة بعد وفاتهن حيث ألحقت بالمسجد النبوي، وكما يعلم كل من ذهب إلى هناك أنها كانت غرفاً صغيرة يمكن حشرها في زاوية من المسجد.

١. نومه على الحصير

دخل عمر بن الخطاب ﷺ يوماً على رسول الله ﷺ فوجده مضطجعاً على

حصير قد أثر في جنبه، ونظر إلى خزانته فرأى فيها قبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قَرَظاً في ناحية الغرفة وأَدَم[1] معلق فلم يملك عمر نفسه وبكى حتى سالت دموعه على خده، فقال له الرسول ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقال عمر: "وما لي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك؟" فقال الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[2] ويقول رسولنا ﷺ في رواية أخرى: «ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استَظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها.»[3]

جاء إلى الدنيا بمهمة معينة.. بفكر وإحساس ينفثان الحياة في الناس، وعندما انتهت مهمته غادر الدنيا، فهل يقبل العقل أن مثل هذا الشخص الذي زهد في الدنيا كل هذا الزهد يمكن أن يميل إلى شيء دنيوي؟ أجل، لم يمل إلى الدنيا أبداً و لم ينحرف قيد شعرة نحوها.

٢. حساسيته نحو الصدقة

جاء في مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ وجد تحت جنبه تمرةً من الليل فأكلها، فلم ينم تلك الليلة، فقال بعض نسائه: يا رسول الله، أرقت البارحة؟ قال: «إني وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتها، وكان عندنا تمر من تمر الصدقة،

---

(١) **قَرَظاً**: ورق السَلَم يُدبغ به. **أَدَم**: هو الجلد الذي لم يتم دبغه بعد.

(٢) **البخاري**، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ **مسلم**، الطلاق، ٣١

(٣) **الترمذي**، الزهد، ٤٤؛ **ابن ماجة**، الزهد، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٠١/١

فخشيت أن تكون منه.»[1]

كانت الزكاة والصدقة محرمتين عليه، ولكن كان من المحتمل أن تكون هذه التمرة من التمر المهداة إليه، وكان هذا هو الاحتمال الأقوى، لأن أموال الصدقة والزكاة ما كانت تبيت في العادة في بيته بل توزع بسرعة. فهل من الممكن لمثل هذا الشخص الذي يتصرف مثل هذا التصرف لأقل شبهة أن يقترب من إثم واضح وبيّن؟ كان يتصرف بحساسية شديدة تجاه أقل شبهة، ولا يقبل أي دنس –مهما كان ضئيلاً– في عالمه الروحي، فهل يمكن تخيل ضعف صاحب مثل هذه الإرادة القوية أمام أي إثم؟ كلا! لم يضعف أمام أي إثم، و لم يسمح لأي إثم أن يتسلل إلى روحه، فبقيت روحه وإرادته على الدوام طاهرتين ونقيتين.. هكذا عاش.. وهكذا التحق برفيقه الأعلى.

٣. شيبتني هود وأخواتها

قال أبو بكر ﷺ يوماً لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله! قد شِبْتَ." قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت.»[2] فقد قيل له في سورة هود ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود: ١١٢). هذه الاستقامة عينها الله تعالى لرسوله ﷺ وطلبها منه. وفي سورة المرسلات نرى وصف الجنة وجهنم، ووصف الزمر التي تذهب إلى هنا أو هناك، ووصف المنظر المرعب الذي يطير بالألباب، كما تصف سورة الواقعة هذه الزمر وتضعها أمام

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ١٩٣/٢

(٢) **الترمذي**، تفسير القرآن، (٥٦) ٦

الأنظار، كانت هذه الصور المعروضة في هذه الآيات تأخذ بلب الرسول ﷺ وتشيبه.

٤. نظرته إلى الآخرة

كان أحد الصحابة يقرأ القرآن بصوت عال، وعندما وصل إلى آية ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ۞ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾ (المزمل: ١٢-١٣) مر رسول الله ﷺ أمام بيته وسمعه وهو يقرأ هذه الآيات، فصعق واصفر وجهه وكاد يقع على الأرض مغشياً عليه.(١)

ولو كان هناك إنسان لا يجب عليه القلق من هذه الآيات لكان هو رسول الله ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه بكل عمل من أعماله وبكل تصرف من تصرفاته كان أسوة حسنة لأمته.

٥. رسولنا في النظر الإلهي

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن» قال فقلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً﴾ (النساء: ٤١) رفعت رأسي، -أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي- فرأيت دموعَه تسيل.(٢)

---

(١) «**كنز العمال**» للهندي ٢٠٦/٧

(٢) **البخاري**، تفسير سورة (٤) ٩؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٤٧-٢٤٨

٦. تفكره

يروي ابن عمر ﷺ عن أمّنا عائشة رضي الله عنها وهي تصف أمر الرسول ﷺ وتبكي:

كل أمره كان عَجَباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبَّد لربي»، قالت فقلت: واللهِ إني لأحب قربَك، وإني أحب أن تَعبّدَ لربك، فقام إلى القربة فتوضأ و لم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله ذنبك ما تقدم منه وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لأيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)»، ثم قال: «ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها» وفي رواية أخرى: «يا بلال! أفلا أكون عبداً شكوراً؟.»[1]

إذن، فرسول الله ﷺ كان يبكي ويذرف دموعاً ساخنة خشية ألا يكون قد وصل إلى ذروة مقام الشكر الذي يجب وصوله إليها، فهل تستطيع أن تتخيل أن إنساناً مثله يمكن أن يميل إلى الإثم أو يقترفه؟

وكما كان الرسول ﷺ يبدي حساسية شديدة في عدم الاقتراب عما نهى عنه الله تعالى كان يبدي الحساسية نفسها في إطاعة الأوامر الصادرة إليه من ربه، فإذا نظرنا إلى عصمته من هذه الزاوية فقط فلا نحتاج على ما أظن إلى أي

---

(١) «**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير ١٦٤/٢؛ «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ١٩٧/٤

دليل آخر.

وفي الحقيقة لم يكن في طاقة أحد أن يعيش حياة كالتي عاشها الرسول ﷺ، ففي عبادته الفردية كان صارماً ودقيقاً ولا يتهاون مع نفسه أبداً، فكأن حياته كلها نُظمت وخططت على أساس العبادة، فلم تكن هناك لحظة واحدة عنده دون عبادة، ولا نقصد بالعبادة الصلاة والصيام وغيرها، فكل عمل عمله كان يحمل فقه شعوره بالعبادة وإحساسه بها.

لقد قلنا عنه إنه كان "سلطان الزاهدين" أو "أزهد الزاهدين".. قلنا هذا لأنه قصارى ما نستطيع التعريف به.. فمفردات اللغة كلها قاصرة عن وصفه.

٧. سبقه في الخير

يروي أحد الصحابة الرواية التالية: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصرَ، فسلّم ثم قام مسرعا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته فقال: «ذكرتُ شيئا من تِبْر عندنا، فكرهت أن يحبسني فأمرتُ بقسمته.»[١]

هذا هو زهده وتقواه وعلاقته بالدنيا.. أن يعطي كل شيء ويقسمه على الفقراء دون أن يسمح بأن يبيت المال في بيته. لقد تمثلت له الدنيا مراراً لتجذبه إليها، ولكنه ردها على أعقابها.[٢]

---

(١) **البخاري**، الأذان، ١٥٨؛ **النسائي**، السهو، ١٠٤

(٢) انظر: «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٣١؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١/٣٠-٣١

٨. بقاؤه جائعاً لأيام

كثيراً ما كان يقضي أياماً عديدة دون أن يضع في جوفه لقمة واحدة، علماً بأنه لم يشبع طوال أيام نبوته من خبز الشعير، وقد تمضي أيام وأسابيع وأشهر دون أن توقد في بيته نار لإعداد حتى حساء بسيط.[١] رآه أبو هريرة ﷺ يوماً وهو يصلي -صلاة نافلة- جالساً، فسأله بعد انتهاء الصلاة عن سبب صلاته جالساً أيشتكي شيئاً؟ فكان جوابه شيئاً يمكن أن ينذهل منه الوجود كله.. كان جائعاً منذ أيام و لم تبق لديه قوة ولا طاقة للصلاة واقفاً.. كان الجوع قد هده.

يقول أبو هريرة ﷺ أنه عندما سمع جواب الرسول ﷺ بكي، فبدأ الرسول ﷺ يواسيه وكانه قد نسي جوعه قائلاً له: «لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تُصيب الجائع إذا احتسب.»[٢]

كان زعيماً، وكان من بين رعيته من يبيت جائعاً، لذا كان على رسول الله ﷺ أن يكيف حياته حسب مستوى حياتهم. كان يعيش في مستوى أفقر أتباعه، عاش هكذا باختياره وبإرادته، ولو شاء لعاش حياة مرفهة، و لم يكن هذا بالشيء الصعب له، فلو لم يقم بتوزيع الهدايا التي كانت تأتيه وأبقاها عنده لكان ذلك كافياً لعيشه حياة مرفهة وناعمة، ولكنه لم يفكر بهذا مطلقاً.

و لم يكن هذا يعني تركه أو ترك جماعته وأمته الدنيا وانعزاله عنها، فلم يكن الموضوع الدعوة إلى الاكتفاء بلقمة واحدة وبلباس خَلِق، فالإسلام لا يمنع

---

(١) **البخاري**، الرقاق، ١٧؛ **مسلم**، الزهد، ٢٩-٣٦؛ **الترمذي**، الزهد، ٣٨

(٢) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم، ١٠٩/٧؛ «**كنز العمال**» للهندي، ١٩٩/٧

الكسب والغنى، فإن اغتنى أيّ شخص أعطى الزكاة التي أمر بها الله تعالى وتصدق، وليس هناك من أحد ضد هذا الكسب الحلال، بل على العكس فالإسلام حث وحرض على الكسب الحلال، ومع ذلك فقد كان من الضروري للرسول ﷺ وأصحابه المقربين إليه أن يضربوا الأمثلة التي ذكرنا قسماً منها آنفاً لكي تبقى هذه الجماعة التي كانت تتوسع على الدوام وخرجت خارج نطاق المدينة ومكة.. تبقى صافية نقية مثل صفائها في اليوم الأول من بدء الدعوة، لأن هذه الجماعة لم تكن جماعة مرتبطة بالمعدة وبالحاجات الجسدية فقط، بل جماعة قلب وروح وإرادة ووجدان، وكان الرسول ﷺ يحافظ على قوة جماعته هذه بهذه الأسس الديناميكية، فكان يطبق على نفسه أولاً أي تضحية يطالبها من جماعته ليكون قدوة وأسوة لهم.

وها كم مثالا رائعا: بلغ الجوع من رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة مبلغاً كبيراً حتى لم يستطع معه البقاء في المنزل فخرج، فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: "الجوع يا رسول الله!" قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا.»

فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التَّيِّهان الأنصاري وكان رجلاً كثير النخل والشاء، و لم يكن له خدم فلم يجدوه، فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء. فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة، وعندما رأى ضيوفه وضع القربة ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويفديه بأبيه وأمه وقال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. ثم انطلق فجاء بعذق فيه بُسْرُ وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه. وأخذ سكيناً فقال له الرسول ﷺ: «إياك والحَلوب» فذبح لهم فأكلوا

من الشاة ومن ذلك العِذق وشربوا. فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر ﷺ: «والذي نفسي بيده لَتُسْأَلن عن هذا النعيم يوم القيامة.. أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم.» ثم قرأ عليهم الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسئَلُنَّ يَومَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨).[١] فلم يكن ينسى لحظة واحدة مقاييسه الحساسة أبداً، لذا يستحيل أن يجد أي إنسان أي انحراف عنده أو ميل عن الحق.

يقول عمر بن الخطاب ﷺ -وكان من أقرب الناس إليه-: "لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي، ما يجد دَقَلاً[٢] يملأ به بطنه."[٣]

وكما قلنا سابقاً لو أراد رسول الله ﷺ لعاش هو وعائلته حياة مرفهة وناعمة، وكان يكفي لهذا القيام بالاحتفاظ بالهدايا الكثيرة التي كانت تأتيه كل يوم، غير أنه كان يوزع ما يأتيه ولا يُبقي في بيته شيئاً منها.[٤] وعندما سئل لماذا لا يستفيد من نعم الدنيا قال: «كيف أَنْعَم وصاحب القَرْنِ قد التَقَمَ القَرْنَ واستمع الإذن متى يؤمَر بالنفخ، فينفُخ.»[٥]

---

(١) **مسلم**، الأشربة، ١٤٠؛ **الترمذي**، الزهد، ٣٩

(٢) **الدَّقَل**: أردأ أنواع التمر.

(٣) **مسلم**، الزهد، ٣٦؛ **ابن ماجة**، الزهد، ١٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٤/١، ٥٠

(٤) **البخاري**، بدء الوحي، ٥، الصوم، ٧؛ **مسلم**، الفضائل، ٥٠

(٥) **الترمذي**، صفة القيامة، ٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٢٦/١، ٧/٣

ب- **تواضع رسولنا ﷺ**

كان رسول الله ﷺ متواضعاً جداً، فالتواضع علامة عند العظام على عظمتهم، والغرور علامة الصغر عند الصغار.. كان يكبر بنسبة تواضعه.. أجل، كان شخصاً عظيماً، لذا كان متواضعاً، فهو القائل: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله.»[1] وكان يقدم المثال العملي والمثال الحي من حياته، كان الجميع يشاهدون هذا التواضع الجم فيعرفون مدى عظمته وسموه.

لقد خسف الله تعالى الأرض بأصحاب الغرور والكبرياء.. ها هو قارون وها هو ثعلبة وها هو فرعون.. وغيرهم وغيرهم... أما الذين تواضعوا له فقد رفعهم إلى أعلى عليين.. ها هو موسى عليه السلام وها هو عيسى عليه السلام، وها هو إبراهيم عليه السلام وها هو محمد ﷺ.

كان تواضعه عميقاً مذهلا، فهو عبد الله ورسوله يؤدي فروض عبوديته لله تعالى في الليل وفي النهار، ويوصى بالاعتدال حتى في أداء فروض العبادة ويقول: «فسددوا وقاربوا.»[2] الإفراط أو التفريط -سواء في العبادة أو في غيرها- ليس هو سبيل رسول الله تعالى الذي كان رجل الاعتدال والتوازن والاستقامة، ثم أليس طلبُ الاستقامة هو الدعاء الذي يكرره المؤمن في صلواته الخمس؟ هذا هو طريق وصراط الأنبياء والصديقين والشهداء، فمن أراد أن يرافقهم يوم القيامة ويكون معهم فعليه أن يسير في الدنيا علي آثارهم.

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٣٢٥/١٠؛ «**كنز العمال**» للهندي ١١٣/٣

(٢) **البخاري**، الإيمان، ٢٩؛ **مسلم**، صفات المنافقين، ٧٨

اليُسر هو روح الدين، فمن أراد جعل الدين صعباً لا يطاق انسحق هو تحت هذا الثقل، بينما الدين المعيش في دائرة الاستقامة سهل ويسير ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «إن الدين يُسر، ولن يُشادَّ هذا الدينَ أحد إلا غلبه.»[1]

الدين هو ما عاشه الرسول ﷺ وما أراد أن يُعاش وحسب ما في وسع الإنسان أن يعيشه «قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»، فلو عبد الإنسان ربه ليل نهار، أو كان مثل الأسود بن يزيد النخعي أو مسروق أو طاووس في العبادة فلا ينجو يوم القيامة بعمله وبعبادته لأنها لن تكون كافية.

ما إن سمع الصحابة هذا الحديث الشريف حتى تبادر الرسول ﷺ إلى أذهانهم، لأن وضعه خاص جداً فقالوا: "ولا أنت يا رسول الله؟" فأجاب بكل التواضع الذي يجب أن يتحلى به العبد الرسول أمام الله تعالى: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل.»[2] هكذا كان تواضعه، بهذا العمق وبهذه القوة والإصالة.

والآن لننتقل من صفة التواضع عنده إلى صفة عبادته. يقول في حديث له: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.»[3] هكذا سيقيم الله تعالى شفاعة نبيه ﷺ يوم القيامة، وألا نعلق نحن آمالنا على هذه الشفاعة؟ نقر بذنوبنا ولكننا نرجو أيضاً عفو الله تعالى وشفاعة رسوله ﷺ لنا.. نحن مذنبون.. ولكننا لم نعبد سواه.. لم نكن عباداً لأحد سواه، وكما قال جلال الدين الرومي رحمه الله:

---

(١) **البخاري**، الإيمان، ٢٩؛ **النسائي**، الإيمان، ٢٨

(٢) **البخاري**، الرقاق، ١٨، المرضى، ١٩؛ **مسلم**، صفات المنافقين، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٦

(٣) **أبو داود**، السنة، ٢١؛ **الترمذي**، القيامة، ١١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢١٣/٣

من بنده شدم بنده شدم بنده شدم من بنده بخدمت سرافكنده شدم

هر بندكه آزاد شـــود شاد شود من شاد ازآنم كه تـــرابنده شدم

أي: أصبحت عبداً.. أصبحت عبداً.. أصبحت عبداً. أحنيت ظهـــري في خدمتك، يفرح العبيد حينما يُعتقون.. وأنا أفرح لكوني عبداً لك.

ونؤمن أنه كما سيسعف الله تعالى دعاءنا وتضرعاتنا، فإنه عندما تـــأزف ساعة شفاعة رسولنا سيسعف طلبنا وسيشفع لنا، لذا فإننا ندق باب شـــفاعته مرة أخرى قائلين له: "الشفاعة يـــا رســـول الله!" سيـــشفع رســـول الله ﷺ لأصحاب الكبائر من أمته، ونحن أيضاً نرجو شفاعته، ولا أظن أن من بيـــنكم من لا يرجو ذلك، إذن، فعلينا جميعاً أن نطلب منه هذه الشفاعة، ولا يـــشكن أحد في سماعه لنا، لأننا عندما نقرأ "التحيات" نقول: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته"، فكيف نخاطبه بهذا الخطاب المباشر إن كان لا يـــسمعنا؟ إذن، فهو يسمعنا، ولهذا طلب الله تعالى منا أن نخاطبه في الصلاة مثـــل هـــذا الخطاب المباشر.

وبينما يوسع الرسول ﷺ ساحة شفاعته هذا التوسيع نراه في حديث آخـــر -وهو الحديث الذي نريد الوقوف عنده- يبدأ أولاً بمخاطبة أقربائه بدءاً مـــن أبعدهم حتى أقربهم إليه عندما نـــزلت آية ﴿وَأَنْـــذِرْ عَـــشِيرَتَكَ ٱلْأَقْـــرَبِينَ﴾ (الـــشعراء: ٢١٤). فيقول لهم: «يا معشر قريش! -أو كلمة نحوهـــا- اشـــتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صـــفية عمـــة

رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنتَ محمدٍ! سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً.»[1]

في ذلك العهد كانت القبائل تفتخر عند ظهور شاعر بينها، لذا فإن هذا الكلام من رسول الله ﷺ يدل على مبلغ تواضعه، فهو لم يكن مجرد شاعر أو محارب، بل خاتم الرسل وسيد الأنام، ومع ذلك كان يقول لقومه وعشيرته بأنه لن يغني عنهم من الله شيئاً، وكان يمنع بذلك قومه وعشيرته من التفاخر على الناس والنظر إلى أنفسهم على أنهم أفضل منهم وأعلى على أساس أن رسول الله ﷺ منهم، بل قام بتنبيههم إلى مسؤولياتهم: بدأ بخطاب أبعد القبائل عنه، ثم تدرج في الخطاب حتى وصل إلى عمته صفية رضي الله عنها قائلاً: «يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً.»

كانت صفية رضي الله عنها أخت عمه حمزة رضي الله عنه، وعندما استشهد حمزة في معركة أُحد أرادت أن ترى أخاها، فرغب الرسول ﷺ في منعها لظنه بأنها لن تحتمل رؤيته وهو على تلك الحال، ولكن هذه المرأة الشجاعة أرادت أن تراه.. ترى أخاها الشهيد الواصل روحه إلى الله تعالى، فذهبت ورأت الجسد الطاهر والممزق لأخيها. أجل، كانت امرأة قوية الإرادة، صلبة العزيمة، وكانت والدة الزبير رضي الله عنه الذي قال الرسول ﷺ في حقه أنه حواريه،[2] وجدة عبد الله بن الزبير الذي استشهد وصلب وهو يدافع عن الكعبة ضد الحَجّاج الظالم،[3]

---

(١) **البخاري**، الوصايا، ١١، تفسير سورة (٢٦) ٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٥١-٣٥٢

(٢) **البخاري**، الجهاد، ٤٠-٤١؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٤٨

(٣) «**الإصابة**» لابن حجر ٢/٣٠٩-٣١١؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٣/٢٤٤

وعلاوة على هذا كله كانت عمة رسول الله ﷺ، ومع ذلك خاطبها الرسول ﷺ بذلك الخطاب.

أجل، كان رسول الله ﷺ رجل حزم وتدبير ورجل توازن، فلم يقل –مثلما قال بعض الغافلين– أنه سيمد يده يوم القيامة إلى الجميع، بل لم يقل أنه سيمد يده إلى أقرب الناس إليه، إلى فاطمة رضي الله عنها فلذة كبده، فقال لها ما قاله لغيرها: «ويا فاطمة بنت محمد! لا أغني عنك من الله شيئاً.»[1]

فاطمة ابنته هذه التي تزوجت مبكراً من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والتي توفيت وعمرها خمس وعشرون سنة، والتي جاء من نسلها جميع الأولياء والأصفياء.. فاطمة هذه نشأت في بيت كان ينهمر إليه الوحي انهمار المطر الغزير، والتي قال الرسول ﷺ في حقها: «فاطمة بَضْعَة مني»[2] وهي سيدة نساء أهل الجنة.[3] ومع كل هذا فقد خاطبها الرسول ﷺ بالخطاب نفسه «يا فاطمة بنت محمد! لا أغني عنك من الله شيئاً»

إذن، فإنسان مثل هذا لم يقصر في إبداء العبودية والخضوع والأدب تجاه ربه، والمتواضع إلى هذه الدرجة الذي لم يعتمد على عمله و لم يضع كل أمله فيه أزهد الزهاد وأكثر الناس خشية لله تعالى، والذي كان يعرف معنى الآخرة أفضل من كل إنسان آخر، أيمكن أن يكون هناك أي احتمال انحراف أو مقارفة إثم، أو خروج

---

(١) **البخاري**، الوصايا، ١١، تفسير سورة (٢٦) ٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٥٠–٣٥١

(٢) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ١٢، ١٦؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ٩٣–٩٤

(٣) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٩؛ **الترمذي**، المناقب، ٣٠

عن خط الاستقامة الذي رسمه له؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

ج- **عبودية رسولنا** ﷺ

عبادته! عبادته! إن الشخص الذي يتأمل عبادته ﷺ سيظن بأنه لم يفعل في حياته شيئاً سوى العبادة، و لم يقم بأي عمل آخر في حياته، بل انصرف إلى العبادة وحدها، كان هذا مبلغ أبعاد عبادته، وليس هذا بالشيء المستغرب، فقد كان السّبّاق دائماً في كل عمل خير وفي كل عمل جميل، فلم يستطع أحد الاقتراب منه في أي من هذه الأعمال والساحات. كلا، لم يكن في طوق أحد الوصول إليه في أي مجال من مجالات الخير والجمال.

كان خشوعه وعبوديته في صلاته عميقة إلى درجة أنه يكاد لا تكون هناك صلاة لا يذرف فيها الدموع. يقول الصحابة إن الرسول ﷺ عندما كان يصلي يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل، عن مطرف عن أبيه قال: "أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أَزِيز كأزيز المِرْجَل" يعني يبكي.(١)

كان شعوره بمسؤوليته كعبد قد جعل جوفه كالمرجل الذي يغلي. كانت الصلاة شيئاً يشتهيها بقوة، فلم تكن هناك لذة تعادل لذة الصلاة لديه، لذا قال مرة: «حُبِّب إليّ من الدنيا: النساء، والطِّيب، وجُعل قُرّة عيني في الصلاة.»(٢)

المرأة أكثر العناصر جذباً لاهتمام الرجل، فقد أودعت هذه الغريزة وهذه

(١) **النسائي**، السهو، ١٨؛ **أبو داود**، الصلاة، ١٥٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/٢٥-٢٦

(٢) **النسائي**، عِشرة النساء، ١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٢٩/٣، ١٩٩، ٢٨٥

الشهوة في نفس آدم عليه السلام عند خلقه، والشهوة هي الأجر المعطى مقابل إدامة النسل، ولولاها لما فكر أحد بإدامة نسله، ذلك لأن النتائج الأخرى لعلاقة الرجل بالمرأة ليست إلا تكاليف شاقة، وحب البنين وحده ليس كافياً لإدامة النسل، لذا فقد خلق الله تعالى الشهوة لكي يميل الرجل إلى المرأة وتميل المرأة إلى الرجل، وليس في إمكان أحد مغالبة هذا الميل أو الخلاص منه، ولو كان ذلك بالإمكان لاستطاع آدم عليه السلام تجاوزه، لذا فالرسول ﷺ يتحدث هنا عن الشعور الفطري هذا، ويقول «حُبِّب إليّ من الدنيا: النساء.. الخ»، فهو النبي الذي يعرف أنه مصبوغ بصبغة الفطرة، إذ لا رهبانية في دينه، وعندما سمع أن بعض أصحابه قال: أمّا أنا فإني أصلي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. عندما سمع هذا قال ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.»[1]

كان إنسان توازن صحيح، وجاء بمبادئ واضحة وموضوعية، جاء بالشريعة الحنيفية السمحة، بدين يستطيع الجميع تطبيقه، فلم يأت لفئة خاصة، ولا لجماعة قليلة، جاء للجميع وكانت رسالته تحتضن الجميع.

وإذا أتينا إلى الطيب نرى أن النفوس الحساسة تستطيب الروائح العطرة. والأنبياء فقط هم الذين يستطيعون الوصول إلى درجة "النفس الصافية"، ورسولنا ﷺ كان في ذروة هذه الدرجة وهذا المقام، فجسده كان يسابق روحه

(١) **البخاري**، النكاح، ١؛ **مسلم**، النكاح، ٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٨٥/٣

في ليلة المعراج، فأينما وصل روحه وصل إليه جسده.

وأنا لا أريد الدخول هنا إلى نقاش حول كيفية معراجه ﷺ، ولكني أقول بأن جمهور العلماء يرون أن معراجه كان بالروح والجسد معاً. فجسده كان قد اكتسب نورانية وروحانية إلى درجة وصل بها إلى كل مكان وصل إليه روحه. قد يستطيع غيره أن يعرج بروحه في منامه، ولكن المعراج بالروح والجسد كان من نصيب سيدنا رسول الله ﷺ فقط. فهو بطل تلك الطريق، وسالك ذلك السبيل.

الطيب هو غذاء الملائكة والروحانيين، ولأن رسول الله ﷺ كان له علاقة بذلك العالم الروحاني فقد أحبَّ الطيب الذي كان ينشرح به كثيراً. لذا، فعندما يذكر أنه حبب إليه النساء والطيب فهو يشرح في جملة واحدة حاجة الروح والجسد معاً، ويشرح بعض صفاته.

غير أن هاتين الناحيتين هما من الحاجات الفطرية ومن مستوجبات الإنسان لأنه إنسان، لذا يشترك الناس الآخرون فيهما معه، أي أن حب النساء والطيب ليس مقتصراً على الرسول ﷺ لأنهما من مستوجبات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويوجدان في معظم الناس، أما الأمر الثالث فيجب الوقوف عنده قليلاً لأن الرسول ﷺ يقول: «وجُعل قُرّة عيني في الصلاة.»

فكما نفرح إذا أخبرنا بمجيء أحب الناس إلينا ولا تكاد تسعنا الأرض من السعادة، فكذلك كانت مشاعر رسول الله ﷺ -ولكن بأضعاف مضاعفة- وهو يقف للصلاة. فمثلاً لنفرض أنه بقي بعيداً عن فاطمة رضي الله عنها، فكم يفرح أن أُخبر بوصولها! كان فرحه لسماعه صوت الأذان يثير عنده فرحاً أضعاف هذا الفرح، ويسعد أضعاف هذه السعادة، لأن الصلاة كانت

معشوقته وحبيبته وقرة عينيه.

ويروى حديث آخر يقوي هذا الحديث حيث جاء فيه: «إن الله جعل لكل نبي شهوة، وإن شهوتي في قيام الليل.»[1] وهذا يعني: أنتم تقومون باتباع اللذائذ الجسدية المختلفة، وهذه اللذائذ تجذبكم إليها فتتبعونها، أما أنا فإنني ما إن أسمع الصوت الواعظ للوجدان وهو يقول لي: قم فقد حان وقت الصلاة حتى أغيب عن نفسي من الوجد فلا أملك إلا الوقوف للصلاة، فتكون أسعد اللحظات عندي في الليل هي اللحظات التي أؤدي فيها الصلاة.

كانت عبودية الرسول ﷺ وقوة ارتباطه بالحق تعالى واعترافه بالوحدانية الإلهية من العمق بحيث لم يستطع كثير من الناس إدراكه، وما الحديث الشريف السابق الذي نقلناه آنفا إلا مثال على ذلك.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.»[2]

وفي رواية أخرى تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسست ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي، إني

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢/٢٧١؛ «**كنز العمال**» للهندي ٧/٧٨٥

(٢) **مسلم**، الصلاة، ٢٢٢؛ **أبو داود**، الصلاة، ١١٨، الوتر، ٥

لفي شأن وإنك لفي شأن آخر.[1]

أجل، كان يقبل على الصلاة مثلما يقبل غيره على الشهوة. لنستمع إلى أبي ذر الغفاري ﷺ. قال أبو ذر ﷺ: صلى رسول الله ﷺ فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨).[2]

إذن، فقد قرأ وصلى حتى الصباح.. لم يكن يشبع من الصلاة، ولم يكن يعرف حداً لحاجته إليها. والآن لنستمع إلى ابن مسعود ﷺ.. ابن مسعود هذا كان من كبار الصحابة، له أيادٍ بيضاء على مدينة الكوفة وعلى المذهب الحنفي، إذ تتلمذ عليه الكثير من العلماء أمثال علقمة وإبراهيم النخعي وحمّاد بن أبي سليمان (الذي كان أستاذ أبي حنيفة)، وكان بعض المسلمين يظنون أنه من آل بيت النبي ﷺ لما يرون من كثرة تردده وتردد أمه على النبي ﷺ.[3] والذي قال فيه النبي ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد -فبدأ به- ومعاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وسالم مولى أبي حُذيفة.»[4]

وعندما أرسله عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة كتب إليهم: "إني والله

---

(١) **مسلم**، الصلاة، ٢٢١؛ **النسائي**، عِشْرة النساء، ٤

(٢) **مسلم**، الإيمان، ٣٤٦؛ **ابن ماجة**، إقامة الصلاة، ١٧٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٤٩/٥

(٣) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٧؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١١٠-١١١

(٤) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٧؛ **مسلم**، فضائل الصحابة، ١١٦-١١٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٦٣/٢

الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه."[1] كان نحيف الجسم دقيق الساقين، ولكنه كان بحراً في العلم.[2]

يقول ابن مسعود ﷺ في رواية عن ابن وائل ﷺ: صليت مع النبي ﷺ ليلةً، فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوءٍ، قلنا: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ.[3]

ولكي نعرف لماذا همّ ابن مسعود بالقعود فإننا ننقل وصف صلاة الرسول ﷺ من صحابي آخر هو حُذيفة ﷺ إذ قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ، ثم ركعَ فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال «سمع الله لمن حمده» ثم قام طويلاً، قريباً مما ركع ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريباً من قيامه.[4]

ويروي لنا عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (إبراهيم:

---

(١) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٥٧/٣

(٢) «**المسند**» للإمام أحمد ١١٤/١؛ **أسد الغابة**، ٣٨٨/٣-٣٨٩؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ١٢٤-١٢٩

(٣) **البخاري**، التهجد، ٩؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٠٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٨٥/١-٣٩٦

(٤) **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٠٣؛ **أبو داود**، الصلاة، ١٤٦-١٤٧

٣٦) وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨) فرفع يديه وقال: «اللّهم أمتي!.. أمتي!..» وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل! اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك.[1]

قضى حياته في العبودية لله تعالى، وكانت الصلاة أحب شيء إليه وقرة عينيه، ألم يقل: «يبعث كل عبد على ما مات عليه.»[2] كان الموت مقدراً عليه كأي إنسان فانٍ، ولكنه عاش حياته وهو يصلي حتى التحق بالرفيق الأعلى.

في أيامه الأخيرة ثقل عليه المرض حتى كان لا يستطيع فتح عينيه إلا بصعوبة وإلا بعد أن يصب على رأسه الماء، ولكنه ما إن يفتح عينيه ويعود إلى صوابه قليلاً حتى يسأل: «أصلّى الناس؟» كان كل فكره في الصلاة.. ويتكرر هذا عدة مرات.. لنقرأ ما جاء في هذا الشأن من كتب الحديث:

عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة قال: دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، ثقل النبي ﷺ فقال: «أصلّى الناس؟» قلنا: لا هم ينتظرونك. قال: «ضعوا لي ماء في المخضب» قالت: ففعلنا فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال ﷺ: «أصلّى الناس؟»

---

(١) **مسلم**، الإيمان، ٣٤٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٤٩/٥

(٢) **مسلم**، الجنة، ٨٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٣١/٣، ٣٣٦

قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: «ضعوا لي ماء في المخضب.» قالت فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه، ثم أفاق فقال: «أصلّى الناس؟» فقلنا لا هم ينتظرونك يا رسول الله ﷺ، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة. فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس. فقال أبو بكر وكان رجلاً رقيقاً: يا عمر صلّ بالناس! فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين – أحدهما العباس– لصلاة الظهر –وأبو بكر يصلي بالناس– فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ بألا يتأخر قال: «أجلساني إلى جنبه!» فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ قاعد. في أيام مرضه الأخير صلى الرسول ﷺ صلاتين فقط في المسجد، كانت هذه الصلاة الأولى، أما الصلاة الثانية فصلاها خلف أبي بكر.[1]

إذن، فهذا هو مبلغ اهتمام الرسول ﷺ بالصلاة وبالجماعة، إذ جاء إلى المسجد وهو لا يستطيع السير بل يجر قدمه جراً مستندا إلى ذراع العباس وعلي.

يرى أحمد بن حنبل أن صلاة الجماعة "فرض عين"[2] لأن الله تعالى يقول ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٣). ويعد بعض العلماء الجماعةَ من أركان

(١) **البخاري**، الأذان، ٥١؛ **مسلم**، الصلاة، ٩٠-٩٧

(٢) «**الفقه على المذاهب الأربعة**» للجزيري ١/٤٠٥

الصلاة، فالصلاة دون جماعة لا تعد صلاة في رأيهم،[1] بينما يرى الإمام الشافعي أن صلاة الجماعة فرض كفاية،[2] وهي سنة مؤكدة حسب المذهب الحنفي،[3] وبعض العلماء يعدونها واجباً.[4]

لا نريد هنا تحليل الموضوع فقهياً، بل أردنا القيام بتذكير بسيط، لأن موضوعنا الأصلي هو عبودية رسولنا ﷺ ومدى تعلق قلبه بالصلاة وعمق هذه الصلاة عنده. فإذا كانت الصلاة تنهى أي إنسان مبتدئٍ بالصلاة عن الفحشاء، وتبعده عن المنكر فكيف بصلاة الرسول ﷺ؟ ألا تبعده عن كل سوء وكل إثم؟

تصف أمنا عائشة رضي الله عنها صلاة رسول الله ﷺ فتقول فيما تقول: "..يصلي أربعاً فلا تسألْ عن حُسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن."[5] هكذا كانت تصف حسن وطول صلاة رسول الله ﷺ.

لو لم يكن هناك دليل على وجود الله تعالى سوى الصلاة التي كان الرسول ﷺ يصليها لكانت تلك دليلاً كافياً، فكأن الله تعالى كان يتجلى في صلواته تلك، أيمكن لصاحب مثل هذه الصلوات أن يقترب من أي ذنب أو إثم؟

كانت عبادته كلا كاملاً، فبينما كان يؤدي الصلاة بأفضل وأعمق شكل،

---

(١) «**الفقه على المذاهب الأربعة**» للجزيري ١٦١/٥-١٦٢

(٢) «**الفقه على المذاهب الأربعة**» للجزيري ٥٥/١

(٣) «**الهداية**» للمرغناني ٥٥/١

(٤) «**شرح فتح القدير**» لكمال الدين محمد عبد الواحد ٣٠٠/١

(٥) **البخاري**، التهجد، ١٦؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ١٢٥

لم يكن يهمل العبادات الأخرى كالصوم مثلاً، إذ كان يصوم يومين في الأقل كل أسبوع، وكان صيامه يطول أحياناً حتى يظنوا أنه لن يفطر، وكان أحياناً يفطر كالآخرين، غير أن أيام صيامه كانت أكثر من أيام فطره.[1]

كان أحياناً يصوم صوم الوصال، أي يبقى صائماً دون إفطار عدة أيام، وكان الصحابة يرون صيامه هذا فيرغبون في تقليده، ولكن سرعان ما يكتشفون مدى صعوبته. وفي إحدى المرات نوى الرسول ﷺ صوم الوصال في الأيام الأخيرة لشهر رمضان ونوى بعض الصحابة ذلك أيضاً، ولكن ما إن استمر الصوم عدة أيام حتى أنهكهم الجوع وخارت قواهم، ولكن حلول العيد -الذي فرحوا به كثيراً- أنجدهم، ولو استمر الصوم يوماً آخر أو يومين لما بقيت عند أحد منهم طاقة ولا قدرة على الدوام. وعندما رأى الرسول ﷺ هذا منهم ابتسم ونهى عن صوم الوصال رحمة بهم، فقيل له: إنك تواصل؟ فقال: «إني لست مثلكم، إني أُطعَم وأسقى.»[2]

وفي أيام شهر رمضان كان له شأن آخر في العبادة، إذ كان يكثر منها ويقضي يومه فيها.[3] ونادراً ما كان يهجع فيها. كان الرسول ﷺ يصوم في أشد أيام الحر.. وفي كثير من المعارك كان صائماً.. وكانت الحرب تشتد أحياناً إلى درجة كبيرة، حتى أنه لم يبق صائما مع رسول الله ﷺ في إحدى هذه

---

(١) **البخاري**، الصوم، ٥٣؛ **مسلم**، الصيام، ١٧٨؛ **أبو داود**، الصوم، ٥٦

(٢) **البخاري**، الصوم، ٤٩؛ **مسلم**، الصيام، ٥٩

(٣) **البخاري**، ليلة القدر، ٥؛ **مسلم**، الاعتكاف، ٧

المعارك الضارية سوى عبد الله بن رواحة ﷺ،[1] ذلك لأنه كان يقول إن «الصيام جُنّة»،[2] أي وقاية وستر من الانزلاق إلى الآثام والمعاصي.

د- عالم أدعية الرسول ﷺ

١. الدعاء مخ العبادة

الدعاء هو العبادة،[3] والدعاء هو مخ العبادة،[4] والدعاء هو الرجوع إلى الرب والاتجاه نحوه، ولا يمكن الحديث عن العبودية دون الحديث عن الدعاء، ألا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَولاَ دُعَائُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧)، وألا يقول: ﴿أُدْعُونِي أستَجِبْ لَكُمْ﴾ (المؤمن: ٦٠).

الدعاء علاقة قوية بين العبد وربه، وبتعبير آخر هو صورة عرض العبد نفسه على الله تعالى، فأي شيء يريده العبد ولا يستطيع الوصول إليه بقوته وبقدرته يلتجئ فيه إلى الله تعالى، والدعاء اسم هذا الالتجاء إلى القادر المطلق.

إن الدعاء الذي حصر في هذه الأيام في الصلوات الخمس أو في نهاية بعض العبادات وقُلّص من أهم حاجات وضرورات هذه الحياة وما بعد هذه الحياة أيضاً. لا يمكن تصور الحياة دون دعاء، الحياة التي نحياها عبارة عن الدعاء من

---

(١) **البخاري**، الصوم، ٣٥؛ **مسلم**، الصيام، ١٠٨-١٠٩

(٢) **البخاري**، الصوم، ٢، التوحيد، ٣٥؛ **مسلم**، الصيام، ١٦٢-١٦٣

(٣) انظر: **الترمذي**، تفسير القرآن (٣) ١٦، ٤٠؛ **ابن ماجة**، الدعاء، ١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٦٧/٤، ٢٧١-٢٧٢

(٤) انظر: **الترمذي**، الدعاء، ١؛ «**كنز العمال**» للهندي ٦٢/٢

أولها حتى آخرها. الدعاء هو شفرة الرضا الإلهي ومفتاح أبواب الجنة، والدعاء علامة العبودية الصادرة والمرتفعة من العبد نحو ربه، وعلاقة الرحمة الإلهية من الرب إلى العبد،[1] وبعبارة أصح هو بؤرة العلاقة بين العبد وربه. وهو عبادة من جهة، ومعراج علوي يربط عالم الدنيا بعالم ما وراء الدنيا، معراج مقدس يسمو بالإنسان نحو الله تعالى درجة درجة.

الدعاء هو سر رفيف يد الرحمة الإلهية فوق رؤوسنا، وهو مانعة الصواعق من الغضب الإلهي. الدعاء وسيلة عبودية مؤثرة في جلب الرحمة الإلهية ودفع الغضب الإلهي، وكثيراً ما يبدأ الشعور والدعاء عند النقطة التي تنتهي فيها القدرة لدى الإنسان، مع أن الأفضل وجوده في كل آن ومنذ البداية. والحقيقة أنه لا يمكن تحديد نقطة بداية ولا نقطة نهاية للدعاء، لأنه لا توجد لحظة في حياة الإنسان لا يكون فيها في حاجة إلى الدعاء، لأن الإنسان الذي لا يبعد في أي لحظة عن تجليات ربه ورحمته لا يمكن أن يكون بعيداً عن الدعاء، ذلك لأن الإنسان يصل إلى باب ربه بالدعاء ويتكلم هناك بالدعاء ويجلب الرحمة كأمطار السماء بالدعاء.

الدعاء من جانبنا هو طلب، فنحن نطلب كل حاجاتنا المادية والمعنوية من ربنا، غير أننا في كثير من الأحيان لا نعرف ماذا نطلب وكيف نطلب، ونتصرف بسوء أدب في موضوع الدعاء تجاه الله تعالى، إذ يرغب الداعي أن تجري الأمور التي يطلبها لا حسب القدر المطلق بل حسب إرادته ورغبته، لذا

(١) انظر: **الترمذي**، الدعاء، ١؛ **أبو داود**، الصلاة، ٢٣؛ «**الفردوس**» للديلمي ٢/٢٢٤

نرغب أن تتحقق رغباتنا بسرعة وبالشكل الذي نريده، وعندما لا تتحقق أدعيتنا نقع في اليأس ونعتقد بأنها ردت، وبتعبير أوضح فإننا نرغب أن تكون الإرادة الإلهية المطلقة تابعة لإرادتنا الجزئية، وهذا أمر يغاير آداب الدعاء. ومثل هذه الأدعية بعيدة من أن تكون رابطة بين الله وعبده. علماً بأن رعاية شروط وآداب الدعاء وسيلة مهمة من وسائل إجابته، وربما كانت أهمها.

قد يرتفع الدعاء في بعض الأحيان كرغبة وشوق عارم من القلب.. في هذه الحالة لا يقول العبد شيئاً، وربما لا تتحرك شفتاه بالدعاء، ولكنه يعلم أن علام الغيوب مطلع على حاله، لذا يجتهد في البقاء في حال توكل واعتماد عليه، تماماً كوضع إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار، فعندما انقطعت جميع الإمكانيات وجميع الأسباب جاء الأمر الإلهي: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩)، جاء هذا الأمر الإلهي في لحظة غير متوقعة لينجده وينقذه.

والشكل الثاني من الدعاء هو التعبير عن الأحاسيس القلبية بالكلمات وإيصالها إلى رب العالمين. هنا يعرض العبد حاله ولكنه لا يطلب شيئاً، وأحياناً يعرض حاله ويعرض طلبه كذلك. وقد أورد القرآن الكريم هذين النوعين من الأدعية على لسان أنبيائه، فالمثال عن النوع الأول دعاء النبي أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)، وكذلك دعاء النبي يونس عليه السلام: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، والمثال على النوع الثاني هو دعاء زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: ٣٨).

إن اهتمام القرآن الكريم بالدعاء وقيامه بتعليم النبي ﷺ الأدعية التي يدعو بها يبين لنا أهمية هذه المسألة، ولولا هذه الأهمية أكان القرآن الكريم يؤكد في مئات من آياته على مسألة الدعاء بإصرار؟ وعلاوة على هذا نجد العديد من الأحاديث الشريفة التي تؤكد على أهمية الدعاء وتعلم الأمة الإسلامية كيف تدعو وماذا تدعو في مختلف شؤون حياتها، لذا فإن الإنسان يحتاج إلى التعبير عن أحاسيسه وأفكاره ورغباته في شكل أدعية بأفضل إسلوب وبأقل الكلمات الجامعة لمعان كلية وشاملة، والقرآن الكريم هو أفضل مساعد ومعاون للإنسان في هذا الشأن، ثم تأتي الأحاديث الشريفة بعده.

وهذا شيء طبيعي، فالله تعالى الذي يطلب منا أن ندعوه يعلمنا أيضاً كيف ندعوه. ولاشك أن الرسول ﷺ علم أفضل وأجمل هذه الأدعية وأكثرها تأثيراً وبركة، لأنه أفضل من عرف ربه وأفضل من دق باب رحمة مولاه.

هو إنسان استقامة، علماً بأن العبودية تعني الاستقامة، فالله تعالى يقول: ﴿وَأَنِ اعبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُستَقِيم﴾ (يس: ٦١)، وهو يشير إلى الحقيقة أعلاه. والرسول ﷺ كان إنسان توازن في جميع حركاته وسكناته، فبينما كان يرسل الجيوش هنا وهناك لفتح العالم بأسره كان يحمل في الوقت نفسه مبدأ عدم إيذاء نملة واحدة.. استعان بالأسباب ولكنه لم يهمل الدعاء في أي وقت من الأوقات.

من أراد رؤية حياة انقضت في الدعاء ليل نهار وفي الابتهال وفي المناجاة فليمعن النظر في حياة رسول الله ﷺ.. ليمعن النظر لكي يرى معاني الدعاء

وآداب الدعاء وما الذي يكسبه الإنسان منه من الناحية المادية والمعنوية لسير ذلك وليعتبر.

قام المئات من المسلمين بجمع الأدعية المروية عن رسول الله ﷺ في كتب، وآخر ما طبع منها هو كتاب "مجموعة الأدعية المأثورة"،[1] وقد روعي في طبع هذا الكتاب جعله كتاباً صغيراً وعملياً. والذي يتصفح هذا الكتاب ويقرأ الأدعية المدرجة فيه يعلم أنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى الرسول ﷺ في موضوع الأدعية. فكأنه عاش كل لحظة من لحظات حياته وهو متوجه إلى الله تعالى بالدعاء، ولو قضى إنسان كل حياته لا يعمل شيئاً سوى الدعاء، لما تجاوز عدد أدعيته الأدعية التي رويت عن رسول الله ﷺ.

لقد تداخلت أدعيته مع كل شعبة من شعب حياته الكريمة، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منها. لم تخل شفتاه ولا قلبه أبداً في أي لحظة من الدعاء ومن الورد، فلم يستغن أبداً عن شرب هذا الشراب الكوثري، كان إنسان عمل ونشاط دائب، ولكنه كان في الوقت نفسه إنسان عبادة ودعاء.

كان الصحابة رجال عبادة، ولكنهم عندما يحاولون السير معه في هذا السبيل لم يكونوا يستطيعون اللحاق به ويتعبون، أما هو فكان يغذ السير دون تعب ولا كلل، ذلك لأن الله خلقه لكي يسير دائماً في المقدمة، وحتى في المعراج حاول جبريل أن يسير معه ولكنه وصل إلى نقطة وإلى موضع لم يستطع بعده مواصلة السير معه. أجل، كان إنساناً سبق الملائكة في السير نحو الله تعالى.

---

(١) وهو ضمن آثار المؤلف. (المترجم)

كان في قمة منارة الدعاء والأحساس بالدعاء، لأنه كان يرمي ببصره من هذه القمة إلى عظمة ربه وجلاله وجماله بشوق لا يعرف الاكتفاء أو الشبع وهو يقول ويردد: «ما عرفناك حق معرفتك يا معروف!.» والاعتراف بعدم الإحاطة بمعرفة الله تعالى هو المعرفة، لذا قال أبو بكر ﷺ شاكياً: "العجز عن الإدراك إدراك"، لأنه كان يتجول في أفق "هل من مزيد؟" على الدوام.

٢. باقة من أدعيته

لا نستطيع هنا تناول جميع أدعيته بالتحليل، لأننا لم نتناول هذا الموضوع إلا من زاوية الإشارة إلى عظمته، لذا سنكتفي بتناول بضعة نماذج من أدعيته.

أ – قبل النوم

النوم أخو الموت،[١] والإنسان المقبل على النوم يجب أن يتذكر هذا ويعرفه، ذلك لأن إغماضة عينيه عن الدنيا قد تكون الإغماضة الأخيرة، لذا يجب ألا يتمدد على فراشه غافلاً، بل مدركاً.

كان الرسول ﷺ عندما يقبل على النوم يقرأ أوائل سورة البقرة ثم الآيات الثلاث الأخيرة منها،[٢] وآية الكرسي[٣] وسورة يس[٤] وسورة السجدة[٥]

---

(١) انظر: «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٤١٥/١٠؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ٩٠/٧

(٢) **الدارمي**، فضائل القرآن، ١٤

(٣) **الترمذي**، فضائل القرآن، ٢؛ **الدارمي**، فضائل القرآن، ١٤

(٤) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩٧/٧؛ «**المطالب العالية**» لابن حجر ٣٦١/٣

(٥) **الترمذي**، فضائل القرآن، ٨؛ «**المطالب العالية**» لابن حجر ٣٥٨/٣

وسورة الملك[1] ثم يقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاث مرات وسورة الكافرون مرة واحدة،[2] ثم ينفخ في يديه ويمسح بهما بدنه حتى نهاية ما تصل إليه يديه.[3] كما كان يقرأ أدعية أخرى لا نذكرها هنا مخافة التطويل، ويستطيع من يرغب الاطلاع عليها مراجعة الكتاب الذي ذكرناه وكتب مجاميع الأدعية الأخرى لمعرفة هذه الأدعية لتنوير حياته بها.

بـ - عند دخوله الفراش

كان يقرأ عند دخوله الفراش سبحان الله ٣٣ مرة، الحمد لله ٣٣ مرة، الله أكبر ٣٣ مرة، وفي رواية ٣٤ مرة. ثم يقرأ أدعية كثيرة،[4] منها هذا الدعاء:

«اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت»،[5] «اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادَك، باسمك أموت وأحيا.»[6]

---

(١) **الترمذي**، فضائل القرآن، ٩، الدعوات، ٢٢

(٢) **أبو داود**، الأدب، ٩٨؛ **الترمذي**، الدعوات، ٢١-٢٢

(٣) **البخاري**، الدعوات، ١٢؛ **الترمذي**، الدعوات، ٢١-٢٢؛ **أبو داود**، الأدب، ٩٧-٩٨؛ **ابن ماجة**، الدعاء، ١٥

(٤) **البخاري**، الدعوات، ١١؛ **مسلم**، الذكر، ٨٠

(٥) **البخاري**، الدعوات، ٦-٧؛ **مسلم**، الذكر، ٥٦-٥٧؛ **الترمذي**، الدعوات، ١٦

(٦) **مسلم**، الذكر، ٥٩؛ **أبو داود**، الأدب، ٩٧-٩٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٤٠٠، ٤١٤

ثم يضع يده اليمنى تحت رأسه ويثني ركبتيه قليلاً وينام على جنبه الأيمن،[1] ناوياً قيام الليل، فقد عاش على الدوام وهو يحمل عاطفة الشوق والوجد لقيام الليل ليتذوق حلاوة المثول بين يدي خالقه في تلك الساعات من الليل.

جـ - دعاء التهجد

كان يزين قيامه لصلاة التهجد بهذا الدعاء: «اللّهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك نور السمٰوات والأرض.»[2]

قراءة هذا الدعاء في ساعات الليل البهيم تحمل معاني كثيرة، فالسماء تظهر في الليل بكل عظمتها وبهائها، والنجوم تومض بهدوء وبكل جمال، وتنساب المعاني إلى القلب الحي الذاكر، وتدخل الأرضُ في تناغم مع السماء في هذه الساعات ويرتفع الحمد لله تعالى الذي خلق هذه السموات والأرض.

يرى الكثير من العلماء أن أسم "القيوم" هو من الاسم الأعظم، وعندما كان النبي ﷺ يحمد الله تعالى كان يحمده في أحيان كثيرة بهذا الاسم لكي يستفيد من تجلياته ويستشفع به. المُلك والمِلك لله تعالى، لذا فهو الْمَلِكْ وهو المالك.

انظروا إلى صدقه وصدق عهده، ها هو يقوم ويجدد العهد الذي سبق وأن عاهده قبل نومه، أي قبل بضع ساعات فقط، ذلك لأنه كان راجعاً من العوالم

---

(١) **أبو داود**، الأدب، ٩٧-٩٨؛ **ابن ماجة**، الدعاء، ١٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٤٠٠، ٤١٤

(٢) **البخاري**، التهجد، ١؛ التوحيد، ٨، ٣٥؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ١٩٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٣٥٨

التي كان يرتادها في أثناء نومه إلى عالم الشهود، لذا كان عليه أن يجدد عهـــده. ثم يقوم بتكملة دعائه السابق فيقول:

«ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقائك حق وقولك حق والجنة حق والنـــار حـــق والنبيون حـــق ومحمد ﷺ حـــق والســـاعة حـــق. اللّهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصـــمت وإليـــك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أســـررت وما أعلنـــت، أنـــت المقدم وأنت المؤخر لا إلـــه إلا أنت -أو- لا إلـــه غيرك.»[1]

وعندما يقول "الحق" فإنه حسب قاعدة "مطلق الذكر ينصرف إلى الكمال" يعني بذلك الله تعالى، وبذلك يعلن الرسول ﷺ أن كل ما يأتي من الله (الـــذي هو الحق) حق.

يعرض استسلامه وتسليم كل أمره لله تعالى قبل نومه، وما إن يقم من النوم حتى يعلن ويجدد هذا مرة أخرى، وبذلك يبدأ يوماً آخر مـــن حياتـــه بهـــذا الاستسلام العميق لله تعالى وتفويض شأنه إليه وينهي دعاءه بذكر هذه الحقيقة "لا حول ولا قوة إلا بالله"، ذلك لأن الإنسان إن لم يستمد القوة من الله تعالى فلن يستطيع تحمل الأعباء الملقاة على عاتقه، فالإيمان والتوكل والاستـــسلام لله لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، فإن لم يشأ و لم يُعن فمن غيره يستطيع ذلك، لذا فكل إنسان محتاج إلى حول الله وقوته.

---

(١) **البخاري**، التهجد، ١؛ التوحيد، ٨، ٣٥؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ١٩٩؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٥٨/١

وبعد أن يعيش الرسول ﷺ في مثل هذا الجو الروحاني يقف للصلاة في ظلام الليل البهيم لكي يبلل أسدال الليل بدموعه. عندما كان يصلي وحده صلاة نافلة يكثر من الدعاء ويطول في صلاته،[1] وعندما يشرع في الصلاة يقرأ هذا الدعاء قبل سورة الفاتحة ويزيد فيها أحياناً زيادات أخرى: «اللّهم لا مانعَ لِما أعطيتَ، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَـدُّ»،[2] وكان أحياناً يضيف بعد هذا الدعاء: «اللّهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللّهم نقني من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس»،[3] ثم يقرأ بعد ذلك سبحانك، وبعد كل هذا التسبيح والتقديس ينتقل إلى قراءة سورة الفاتحة.

وفي الواقع هناك أدعية أخرى له كان يقرأها في صلواته هذه، غير أننا نحيل القراء الكرام إلى كتاب "مجموعة الأدعية المأثورة"، ونكتفي هنا بهذا القدر.

د – قيامه صباحاً

عندما يصبح كان يرطب شفتيه بهذا الدعاء: «اللّهم إني أصبحت أُشْـهِدُكَ وأُشْهِد حملةَ عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلاّ أنت وأن محمداً عبدك ورسولك.»[4] يُشهد خلقَه.. الأشجار والأوراق وهمهمتها.. والمياه والشلالات والسيول ودمدمتها.. يشهد كل الخلق ويلحق هذه

(١) **البخاري**، التهجد، ١٦؛ **مسلم**، صلاة المسافرين، ١٢٥، ٢٠٣-٢٠٤

(٢) **البخاري**، الدعوات، ١٨؛ **مسلم**، الصلاة، ٩٤؛ **الترمذي**، الصلاة، ١٠٨

(٣) **البخاري**، الأذان، ٨٩، الدعوات، ٣٩؛ **مسلم**، المساجد، ١٤٧

(٤) **أبو داود**، الأدب، ١٠١؛ **الترمذي**، الدعوات، ٧٨

الشهادة بشهادته هو.. وترتفع هذه الشهادات كلها وتتجه نحو الله تعالى.

هذا الدعاء من الرسول ﷺ يبين مدى أفقه الواسع وشعوره وإدراكه العميق وطبيعة علاقته مع الحق تبارك وتعالى، ولو نطق غيره أيضاً بهذه الكلمات لما أدرك العمق الحقيقي لها مثله.

يُشهد الرسول ﷺ الوجود كله، ولاسيما الملائكة المقربين وسكنة السموات المشرفين على الوجود، على توحيده لله تعالى وحمده له. ونفهم من إشهاد الرسول ﷺ للملائكة أنه عندما تريد دق باب العظماء فلا بد أن تبحث عن اليد التي تدق مطرقة الباب، لذا نجد شخصاً ذا فراسة مثل عمر بن الخطاب ﷺ يستسقي بالعباس بن عبد المطلب عام الرمادة في المدينة ويقول: "اللّهم هذا عم نبيك ﷺ نتوجه إليك به فاسْقِنا"، فما برحوا حتى سقاهم الله.(١)

كان هذا فراسة من عمر ﷺ، وقد أخذها من دعاء رسول الله ﷺ وإشراكه الملائكة في دعائه وتضرعه، وبالشعور نفسه يتضرع داعية العصر العظيم فيقول:

"إلهي! الذنوب أخرستني، وكثرة المعاصي أخجلتني، وشدة الغفلة أخفتت صوتي، فأدق باب رحمتك، وأنادي في باب مغفرتك بصوت سيدي وسندي الشيخ عبد القادر الكيلاني وندائه المقبول المأنوس عند البواب بـ"يا من وسعت رحمته كل شيء، ويا من بيده ملكوت كل شيء، ويا من لا يضره شيء ولا ينفعه شيء، ولا يغلبه شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يؤوده شيء

(١) **البخاري**، الاستسقاء، ٣، فضائل أصحاب النبي، ١١

ولا يستعين بشيء."[1]

من بين أدعية الرسول ﷺ في الصباح نجد هذا الدعاء أيضاً: «اللّهم فاطر السموات والأرض عالِمَ الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أني أشهد أن لا إله الا أنت وحدك لا شريك لك..»[2]

والذي يجلب الانتباه في هذا الدعاء استعماله ﷺ لكلمة الفاطر مع وجود كلمات وأسماء أخرى مثل البارئ والخالق والجاعل، فبكلمة الفاطر كان يرمي إلى المعاني التالية: أنت الذي خلقت السموات والأرض حسب قوانين الفطرة، وأنت الذي أعطيت النظام، وهذا الوجه المشرق النظيف لهذه القوانين.

هـ - دعاؤه في المساء

بعد شروق الشمس وفي الساعات الأولى من الصباح كان يقرأ هذا الدعاء وعشرات غيره من الأدعية، وما أن تغيب الشمس ويسود الظلام حتى نراه يقرأ الدعاء الآتي الذي يكون له نوراً وضياء، فأماسي الرسول ﷺ منورة مثل أصباحه، وأدعيته كانت مثل القناديل لا يهمل أبداً إيقادها: «اللّهم إني أمسيت أُشهدك وأُشهِد حملةَ عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدُك ورسولك.»[3] كان كل ركن من أركان صلاته بمثابة سُلّم نوراني يصعد نحو العرش، وكان الدعاء

---

(١) «**حزب أنوار الحقائق النورية**» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٢٦٦

(٢) **الترمذي**، الدعوات، ٩٤؛ **أبو داود**، الأدب، ١٠١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤١٢/١

(٣) **أبو داود**، الأدب، ١٠١؛ **الدارمي**، الاستئذان، ٥٤

درجات هذا السلّم.

كان جو تهيئه للصلاة ذا علاقة بالجو النوراني لصلاته، فعندما يدخل الخلاء كان يدعو، وعندما يخرج كان يدعو وعندما يبدأ بالوضوء يدعو، وعند غسله أعضاءه في الوضوء له أدعية أخرى، وبعد أن يتم الوضوء كان يدعو، ثم دعاء آخر بعد انتهاء الأذان، ودعاء آخر عند بدء الصلاة، ودعاء آخر عند ذهابه إلى المسجد، ودعاء عند خروجه منه.

بعد تكبيرة الافتتاح يدعو.. يدعو في ركوعه وقيامه وسجوده.. وبين السجدتين وعند جلوسه للتحيات.. وبعد انتهاء الصلاة بالسلام.. دعاء.. دعاء...

و - في أثناء الصلاة

بعد تكبيرة الافتتاح كان يقرأ الدعاء التالي: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونُسكي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين. اللّهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.»(١)

وعند ركوعه يدعو أيضاً، من أمثلة دعائه هنا: «اللّهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومُخّي وعظمي وعصبي وما

(١) **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ **الترمذي**، الدعوات، ٣٢

استقلت به قدميّ لله رب العالمين.»[1]

وعند قيامه من الركوع يدعو: «اللّهم لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد.»[2]

وفي السجود: «اللّهم لك سجدتُ وبك آمنت ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين. اللّهم اغفر لي ذنبي كله دِقّه وجُلّهُ وأوله وآخره وعلانيته وسره.»[3]

ماذا يفعل الإنسان خارج الصلاة والعبادة؟ يأكل ويشرب، يقوم ويقعد، يضحك ويبكي، يفرح ويحزن، يتزوج ويكون صاحب أولاد وذرية، يلبس لباساً جديداً، يسافر أو يرجع من سفر، يجاهد ويقاتل ويرجع من القتال، يستلم خبراً مفرحاً أو سيئاً من أحدهم، يقابل صديقاً يحبه، يمرض ثم يشفى، ينام ويرى مناماً مفرحاً أو كابوساً...الخ من مئات الأعمال. كان للرسول الله ﷺ دعاء خاص لكل أمر من هذه الأمور ولكل عمل من هذه الأعمال، يدعو ويؤكد عبوديته لله تعالى في كل عمل من أعماله وفي كل خطوة يخطوها.

ثم هناك حوادث تجري خارج إرادة الإنسان وتكون ذات علاقة غير مباشرة معه، مثلاً حدوث قحط أو مجاعة أو انحباس المطر أو حدوث حريق أو سيل أو إعصار أو انتشار آفة.. هذه الحوادث مع كونها غير مرتبطة مباشرة بالفرد إلا أنها

---

(١) **مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ **أبو داود**، الصلاة، ١١٩؛ **الترمذي**، الدعوات، ٣٢

(٢) **مسلم**، الصلاة، ٢٠٢-٢٠٣، صلاة المسافرين، ٢٠١؛ **الترمذي**، الدعوات، ٣٢

(٣) **مسلم**، الصلاة، ٢١٦؛ صلاة المسافرين، ٢٠١؛ **الترمذي**، الدعوات، ٣٢؛ **أبو داود**، الصلاة، ١١٩

تؤثر فيه سلبياً بطريق غير مباشر، وكان للرسول ﷺ أدعية يتوجه فيها إلى ربه في مثل هذه الأمور والآفات.

وكما قلنا في بداية الفصل بأننا لم نتناول هذا الموضوع لكي ننقل أدعية الرسول ﷺ، بل كانت غايتنا إظهار كيف أن أحداً لا يستطيع الوصول إليه حتى في موضوع الأدعية، وأنه كان يقضي كل لحظة من حياته في الدعاء، ولاشك أنه لا يمكن الوصول إلى هذه النتيجة إلا بعد الاطلاع على جميع أدعيته، ولم نقدم هنا إلا نماذج قليلة وبنسبة أقل من واحد في الألف لكي نعطي فكرة سريعة حول الموضوع، أي أن ما قمنا به لا يعدو الإشارة إلى قطرات ماء مترشحة دليلاً على وجود عين فياضة.

أجل، نحن نؤمن ونعتقد بأنه ما من فضيلة إلا وهو السابق فيها سبقاً لا يدانيه فيه أحد، فهو في الذروة دائماً، وقد حاولنا منذ بداية هذا الكتاب إثبات هذا وإقامة الدليل عليه، فإن قصرنا في شيء فالقصور يرجع إلينا وهو مبرأ من كل تقصير ومنزه عنه، لأنه الرسول المصطفى ﷺ.

ولأنه نوّر كل لحظة من لحظات حياته بالتوجه إلى ربه فلن يجد أحد أي لحظة مظلمة في حياته، فحياته كلها عبارة عن دعاء وعن تضرع وعن توجه لرب العالمين، وبهذه الضراعة والتوسل والدعاء سيقول يوم القيامة: «أمتي!.. أمتي!..»[1]

والحقيقة أن قلبي لا يطاوعني على إنهاء هذا الموضوع المتعلق برسولنا ﷺ، فكأنني -وأنا أتحدث عنه- قد دخلت في صحبته وفي جوه، لذا يصعب علي

(١) **البخاري**، التوحيد، ٣٦؛ **مسلم**، الإيمان، ٣٢٦

إنهاء هذا الجو، ولكن ما باليد حيلة، لذا سأنهي الموضوع بإيراد هذه الكلمات النيرة من داعي القرن العشرين والتي أوردها في حق الرسول ﷺ:

"اعلم أن ذلك البرهان الناطق له شخصية معنوية عظيمة فإن قلت: ماهو؟ وما ماهيته؟ قيل لك: هو الذي لعظمته المعنوية صار سطح الأرض مسجده، ومكة محرابه والمدينة منبره. وهو إمام جميع المؤمنين يأتمون به صافين خلفه، وخطيب جميع البشر يبين لهم دساتير سعاداتهم. ورئيس جميع الأنبياء يزكيهم ويصدقهم بجامعية دينه لأساسات أديانهم. وسيد جميع الأولياء يرشدهم ويربيهم بشمس رسالته. وقطب في مركز دائرة حلقة ذكر تركبت من الأنبياء والأخيار والصديقين والأبرار المتفقين على كلمته الناطقين بها. وشجرة نورانية عروقها الحيوية المتينة هي الأنبياء بأساساتهم السماوية، وأغصانها الخضرة الطرية وثمراتها اللطيفة النيرة هي الأولياء بمعارفهم الإلهامية، فما من دعوى يدعيها إلا ويشهد له جميع الأنبياء مستندين بمعجزاتهم وجميع الأولياء مستندين بكراماتهم. فكان على كل دعوى من دعاويه خواتم جميع الكاملين، إذ بينما تراه يقول: "لا إله إلا الله" وادعى التوحيد فإنا نسمع من الماضي والمستقبل من الصفين النورانيين -أي شموس البشر ونجومه القاعدين في دائرة الذكر- عين تلك الكلمة فيكررونها ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم، فكأنهم يقولون بالإجماع: "صدقت وبالحق نطقت." فأنّى لوهم أن يمد يده لرد دعوى تأيدت بشهادات من لا يحد من الشاهدين الذين تزكيهم معجزاتهم وكراماتهم.

اعلم أن هذا البرهان النوراني الذي دل على التوحيد وأرشد البشر إليه كما أنه يتأيد بقوة ما في جناحيه نبوةً وولاية من الإجماع والتواتر، كذلك تصدقه

مئات إشـــارات الكتب الســـماوية من بشـــارات التوراة والإنجيـــل وزُبـــر الأولين، وكذلك تُصدقه رمـــوز ألوف الإرهاصات الكثيرة المشهودة، وكذلك تصدقه دلالات معجزاته من أمثال شـــق القمر ونبعان المـــاء مـــن الأصـــابع كالكوثر ومجيء الشجر بدعوته، ونـــزول المطر في آن دعائه، وشبع الكثير من طعامه القليل، وتكلم الضب والذئب والظبي والجمل والحجر إلى ألـــف مـــن معجزاته كما بينها الرواة والمحدثون المحققون. وكذلك تصدقه الشريعة الجامعة لسعادات الدارين.

واعلم أنه كما تصدقه هذه الدلائل الآفاقية، كذلك هو كالشمس يدل على ذاته بذاته، فتصدقه الدلائل الأنفسية، إذ اجتماع أعالي جميع الأخلاق الحميدة في ذاته بالإتفاق، وكذا جمعُ شخصيته المعنوية في وظيفته أفاضل جميع السجايا الغالية والخصائل النـــزيهة، وكذا قوة إيمانه بشهادة سيره، وكمال جديتـــه وكمـــال متانته، وكذا قوة أمنيته في حركاته بشهادة قوة اطمئنانـــه تـــصدقه كالـــشمس الساطعة في دعوى تمسكه بالحق وسلوكه على الحقيقة.

اعلم أن للمحيط الزماني والمكاني تأثيراً عظيماً في محاكمات العقول، فـــإن شئت فتعال لنذهب إلى خير القرون وعصر السعادة النبوية لتحظـــى بزيارتـــه الكريمة ﷺ -ولو بالخيال- وهو على رأس وظيفته يعمل، فافتح عينيك وأنظر! فإن أول ما يتظاهر لنا من هذه المملكة شخص خارق له حسن صورة فائقـــة، في حسن سيرة رائقة، فها هو آخذ بيده كتاباً معجزاً كريما، وبلسانه خطابـــاً موجزاً حكيماً يبلغ خطبة أزلية ويتلوها على جميع بني آدم، بل على جميع الجن والإنس، بل على جميع الموجودات.

فيا للعجب! ما يقول؟ نعم! إنه يقول عن أمر جسيم، ويبحث عن نبأ عظيم، إذ يشرح ويحل اللغز العجيب في سر خِلقة العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق في سر حكمة الكائنات، ويوضح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة المعضلة التي أشغلت العقول وأوقعتها في الحيرة، إذ هي الأسئلة التي يسأل عنها كل موجود وهي: من أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين؟

فإن شئت أن تعرف أن ما يحركه إنما هو قوة قدسية فانظر إلى إجراآته في هذ الجزيرة الواسعة.. ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة المتعصبين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذ الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة وجهزهم بأخلاق حسنة عالية فصيّرهم معلمي العالم الإنساني وأساتيذ الأمم المتمدنة. فانظر! ليست سلطنته على الظاهر فقط، بل ها هو يفتح القلوب والعقول ويسخر الأرواح والنفوس حتى صار محبوب القلوب ومعلم العقول ومربي النفوس وسلطان الأرواح."[1]

يا سلطان أرواحنا! لقد تربعتَ على عرش قلوبنا.. نقدم إليك أرواحنا فتقبل منا بفضلك.

---

(١) «**الكلمات**» لبديع الزمان سعيد النرسي ص٢٥٥-٢٥٦

كتب الأستاذ النورسي هذا البحث باللغة العربية في كتابه "المثنوي العربي النوري" ثم ترجمه إلى التركية وجعله "الكلمة التاسعة عشرة" وعندما قام الأستاذ إحسان قاسم الصالحي بترجمة كتاب "الكلمات" إلى اللغة العربية احتفظ بالنص العربي الأصلي للمؤلف مع ما يستوجب من تقديم وتأخير وحذف وإضافة في ضوء النص التركي. (المترجم)

تم الجزء السادس من سلسلة النور الخالد

ويليه الجزء السابع وهو

"السنة النبوية تقييدها ومكانتها في الشريعة الإسلامية"

فهرس

القسم الخامس: عصمة الانبياء (عليهم السلام) وعصمة نبينا ﷺ

الفصل الأول: ٧

العصمة بمعناها العام..... ٧

أ- معنى العصمة لغوياً ومصطلحاً ٧

ب- كل نبي معصوم ٨

ج- الأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها.....١٢

د- الأدلة على عصمة الأنبياء.....١٤

هـ- العصمة خارج الأنبياء.....١٦

و- العصمة في الكتب السابقة وفي القرآن الكريم ٢٢

ز- الافتراءات الشنيعة في الكتب السابقة حول الأنبياء.....٢٣

الفصل الثاني: ٢٩

العصمة والأنبياء الآخرون ٢٩

أ- آدم عليه السلام ٣٠

ب- نوح عليه السلام ٣٧

ج- إبراهيم عليه السلام ٤١
١. الكوكب والقمر والشمس ٤٢
٢. إحياء الموتى ٤٦
٣. التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام ٤٩
٤. استغفاره لأبيه ٥٦
د- يوسف عليه السلام رمز العفة ٦٢
الفصل الثالث: ٧٣
عصمة رسولنا ﷺ ٧٣
أ- التنبيهات الواردة في حقه في القرآن ٧٥
ب- ما وراء الأستار في التنبيهات الموجهة للرسول ﷺ ٧٧
١. أسرى بدر ٧٧
٢. غزوة تبوك ٨٤
٣. سورة عبس ٨٩
٤. اقتراح ثقيف ٩٨
٥. خُلقه نحو الفقراء ١٠٢
٦. تذكير ١٠٦
٧. زواجه بالسيدة زينب رضي الله عنها ١٠٧
الفصل الرابع: ١١٤
انعكاس العصمة في حياته ١١٤
أ- زهد الرسول ﷺ وتقواه ١١٤

١. نومه على الحصير ١١٥
٢. حساسيته نحو الصدقة ١١٦
٣. شيبتني هود وأخواتها ١١٧
٤. نظرته إلى الآخرة ١١٨
٥. رسولنا في النظر الإلهي ١١٨
٦. تفكره ١١٩
٧. سبقه في الخير ١٢٠
٨. بقاؤه جائعاً لأيام ١٢١
ب- تواضع رسولنا ﷺ ١٢٤
ج- عبودية رسولنا ﷺ..... ١٢٩
د- عالم أدعية الرسول ﷺ..... ١٣٩
١. الدعاء مخ العبادة..... ١٣٩
٢. باقة من أدعيته..... ١٤٤

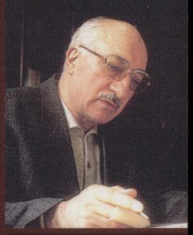

العصمة النبوية

كل الأنبياء معصومون، لأنهم مختارون من قبل الله تعالى لأداء مهمة خاصة جدا، لذا فقد صانهم الله على الدوام وزودهم بصفة العصمة. فلكي يكونوا أئمة الهدى وقدوة الإنسانية جمعاء عليهم أن يحافظوا على منزلتهم السامية وموقعهم الطاهر وأن يصونوا أنفسهم من أي تلوث لكي لا ينحرف أتباعهم. وما ينسب إلى بعض الأنبياء من الهفوات أو الهنات لا تعد ذنوبا أصلا. وما نسميه نحن بالهفوة أو الزلة إنما يتعلق بمقامهم السامي، أي أن هذه الهفوات بينما لا تعد شيئا بالنسبة لأمثالنا، إلا أنها تعد زلات بالنسبة للمقربين إلى الله.

أجل، كل نبي معصوم. أما رسول الله ﷺ فهو في قمة العصمة. ذلك لأن كينونته عُجنت بالتجليات الألهية، وكان قلبه على الدوام مرآة لتجليات الله تعالى، لذا فمثله لا يكون إلاّ في أعلى قمة العصمة.

المؤلف:
محمد فتح الله گولن

المترجم:
أورخان محمد علي

دار النيل
للطباعة والنشر

ISBN 975-315-178-0
9 789753 151788